يوسف سدان

الأدب العربي الهازل ونوادر الثقلاء

العاهات والمساوئُ الانسانية ومكانتها في الأدب الراقي



منشورات الجمل

هذا الكتاب

يمتاز هذا الكتاب عن غيره من الدراسات بما يتصف به من بعد الرؤيا، شموليتها ونضارتها في مقاربة الهزل والفكاهة في الأدب العربي القديم. فهو يتناول الموادَّ الهزلية الضاحكة التي شكّلت جزءاً هاماً ممّا يُعرف بأدب «الأدب» بدراسة جادة وفق المنهج الاجتماعي-الثقافي. فالكاتب يعرض لموضوع الهزل والموقف منه في أوساط المؤسسة الدينية-الأخلاقية، فيصف مواقف القبول والتسامح من جهة، والرفض والتشدد من الجهة الأخرى. كما يصف النزعة الأدبية، والأجواء التي خلقتها العناصر التي غذت الأدب العربي في العصور الوسطى، مثل تراث البادية الذي حمله العرب معهم، من ناحية، وما أملته عليهم الحياة الحضرية، بعد فترة الفتوحات، من الناحية الأخرى: بيئة البلاط وما اتصل بها من نوادر، مقابل البيئة الشعبية ونوادرها.

يوسف سدان

الأدب العربي الهازل ونوادر الثقلاء




تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

يوسف سدان

الأدب العربي الهازل
ونوادر الثقلاء

العاهات والمساوئ الانسانية ومكانتها
في الأدب الراقي

منشورات الجمل

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

النوادر راحة * وبها للمكدود
استراحة * لا سيّما إذا أثقله عبء
الجد * وعاد باحتماله كليل الحدّ *

عن ابن حمدون
«التذكرة»

تصدير طبعة ٢٠٠٧

هذا الكتاب المقدَّم الآن بحلة جديدة والذي كان قد رأى النور منذ اكثر من عشرين عاماً، يمتاز عن غيره من الدراسات بما يتصف به من بعد الرؤيا، شموليتها ونضارتها في مقاربة الهزل والفكاهة في الأدب العربي القديم. فمؤلف الكتاب، الباحث الأستاذ يوسف سدان يتناول في كتاب «الأدب العربي الهازل ونوادر الثقلاء» الموادَّ الهزلية الضاحكة التي شكّلت جزءاً هاماً مما يُعرف بأدب «الأدب» بدراسة جادة يتبع فيها منهج البحث المعروف بالمنهج الاجتماعي-الثقافي (socio-cultural, socio-culturel). فالكاتب يعرض لموضوع الهزل والموقف منه في أوساط المؤسسة الدينية-الأخلاقية، فيصف مواقف القبول والتسامح من جهة والرفض والتشدد من الجهة الأخرى. كما يصف النزعة الأدبية، والأجواء التي خلقتها العناصر التي غذت الأدب العربي في العصور الوسطى، مثل تراث البادية الذي حمله العرب معهم، من ناحية، وما أملته عليهم الحياة الحضرية، بعد فترة الفتوحات، من الناحية الأخرى: بيئة البلاط - على مختلف عناصرها من ندماء ومغنين وغيرهم - وما اتصل بها من نوادر، مقابل البيئة الشعبية ونوادرها. كما يعرض لموضوع تباين

أذواق الفئات الاجتماعية المختلفة في مجال الضحك والفكاهة. ثم إن المؤلف يجمع من مختلف المصادر القديمة كل ما تبقى من موادّ هزلية تنتمي الى نوع أدبي غني وهام عرف «بنوادر الثقلاء»، لم يكن - في حينه - أقل أهمية من «نوادر البخلاء» المشهورة.

طبع كتاب «الأدب العربي الهازل ونوادر الثقلاء» عام ١٩٨٣، وقد نفدت كل نسخه من الأسواق منذ سنين. وقد آن الأوان لإعادة نشره لكي يتسنى لطلاب العلم أن يحصلوا عليه بعد كل هذه الأعوام التي شكّل فيها مرجعاً علمياً هاماً. وبما أن الكتاب كان قد طبع في زمن لم يكن بعض ما اعتمد عليه مؤلفه من مصادر قد حقّق ونشر بعد، بل كان مخطوطاً وقابعاً في مكتبات مختلفة، فإنه خدم باحتوائه على مواد طريفة وهامة من تلك المخطوطات جمهور الباحثين الذين تعذر عليهم الوصول إليها.

لكن منذ ذلك الحين نشر بعض هذه المصادر، مثل «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون، «ربيع الأبرار» للزمخشري، «ذم الثقلاء» لابن المرزبان، وقد اقتبس مؤلفنا في طبعة ١٩٨٣ من جميع هذه المصادر وأحال على نسخها الخطية الموجودة في المكتبات التي زارها بهدف إعداد البحث. كما نُشرت عدة مقالات كانت ما تزال، عندما أحال عليها الباحث، في مرحلة الإعداد للطبع والنشر في مجلات علمية (انظر: www.sadan-adab.com).

والسؤال الذي يطرح نفسه في مثل هذه الحالة هو: هل يجدر أخذ صدور هذه الأعمال بعين الاعتبار، وبالتالي جعل الإحالات في الهوامش عليها بدلاً من الإحالة على المخطوطات أم الإبقاء على ما كان قائماً في الأصل؟ ويبدو أن مؤلف الكتاب ودار النشر كانا على

حق عندما اختارا الإمكانية الثانية وهي إعادة طبع الكتاب دون إدخال تغييرات جذرية في هذا المجال. ذلك لأن اختيار الإمكانية الأولى كان سيؤدي إلى إرجاء النشر لوقت قد يطول، لما يتطلبه هذا القرار من وجوب القيام بعمل شاق في ملاءمة المعطيات القديمة مع المعطيات جديدة كتبديل أرقام الأوراق في المخطوطات بأرقام الصفحات في الكتب المطبوعة. . .

ثم إن الإبقاء على شكل الكتاب الأصلي، باستثناء بعض التغييرات الطفيفة، يتيح الفرصة أمام القارئ للوقوف على ما امتاز به مؤلف الكتاب، عند إعداده لهذا البحث، من جرأة، طلائعية وسعة اطلاع في تلك الفترة، قبل أن يهجر موضوع الهزل ويشد الرحال إلى أماكن أخرى في عالم الحضارة العربية-الإسلامية ليقدم سبعة من الكتب وعشرات من المقالات العلمية.

د. ابراهيم جريس

تصدير طبعة ١٩٨٣ الأصلية

لا شكّ أن الكتابة في موضوع الهزل هي أكثر ما يخيّب آمال القارئ، فهو يتوقع، على الأقل في نطاق الحديث عن المسائل الهزلية، أسلوباً رشيقاً لطيفاً ينأى به عن أسلوب البحث الجافّ وعن الرزانة المتعبة المرهقة... وتلك مهمة ليس من السهل تحقيقها، خصوصاً إذا كانت الدراسة ترمي إلى التعمّق فيما وراء الحبكة الهزلية وإلى تحليل المعايير الأخلاقية ـ الاجتماعية والمقاييس الجمالية ـ الأدبية.

ولقد اضطررنا أحياناً، في سبيل تقييم هذه المعايير وتحليلها على مدى العصور، إلى تخطي حدود القرون الوسطى (و«القرون الوسطى» مصطلح لا يتلاءم وتاريخ الأدب العربي...) والوصول إلى الفترة المتأخرة نسبياً (في القرن الثامن عشر أو بداية القرن التاسع عشر) عندما وجدنا فيها امتداداً لكتابة القرون الوسطى، خصوصاً في موضوع «نوادر الثقلاء»، سواء في مؤلفات تتسم بطابع شبه شعبي أو في مؤلفات ذات صبغة أدبية «رسمية» ومستوىً أسلوبي راقٍ. ثم إن الكتابة، بشكل عام، حول الأدب العربي في القرون الوسطى (على الأقل بمعنى المصطلح «أدب» المحدّد في الملاحظتين ١، ٣٣،

أدناه) ليست يسيرة، ولا بدّ لها أحياناً من أن تحمل طابعاً شاقاً على ما يبدو.

فإذا كنّا قد عمدنا سابقاً إلى إبراز البعد الاجتماعي و«المادي» بالإضافة إلى العنصر الأدبي ومن خلاله، فما كان لنا ذلك إلا بهدي وتشجيع، لا من الأبحاث المكتوبة فحسب، بل عن طريق الإتصال والحديث الشخصيين أيضاً، مع بعض معلمينا وزملائنا: فهناك من كان لهم أثر غير مباشر مثل الأستاذ شنعار الذي كشف أمام أعيننا لأول مرّة بعض مشاكل الأدب العربي القديم، والأستاذ شارل بلا بمنهجه الاجتماعي ـ الأدبي، وقد تعرفنا عليه منذ ثلاث عشرة سنة حين أنهينا، في باريس، رسالة الدكتوراة في موضوع هو أقرب إلى الحياة الماديّة والاجتماعية منه إلى البيئة الأدبية...

ي. س.

آذار، ١٩٨٣

الفصل الأول

حدود الهزل بين الفطري والمتطور

١. العيوب الإنسانية والأدب

ثمة بون شاسع بين أبسط أشكال الضحك مثل ضحك الأطفال من شخص تزحلق على قشرة موز في الشارع، أو من مكفوف اصطدم بحائط، أو من أحدب يتجول في أحد الأزقة وبين الشكل المهذب في مزاح الكبار. ويحصل التهذيب عندما يمرّ المزاح بمراحل عديدة، منها اضفاء العناصر الأخلاقية والتطوير الفني الزخرفي، وذلك ضمن نطاق الأدب(١) بفروعه وأشكاله المختلفة.

فهناك أدب هزلي يزخر بالمضامين الثقافية والدينية والعلمية، وقد يكون منمّقاً من الناحية الفنية مفعماً بالمعلومات المستمدة من المصادر القديمة، يميل تارةً إلى الصورة الشعرية ذات الوزن والقافية، وطوراً إلى النثر الفني المسجوع وغير المسجوع. وهكذا يمرّ النتاج الأدبي الهزلي بمراحل التلطيف والتهذيب ويصل إلى قمة التطوّر. وحتى العناصر التي ظلت فجّة من الناحية الأخلاقية تظهر

(١) طُبع هذا المصطلح في طبعتنا الأولى بحروف نافرة عندما يعني النوع الأدبي المعين، أيّ الفن الأدبي المتعدد الفروع المسمّى بأدب (literary genre) القرون الوسطى، كما سيأتي شرحه أدناه، ص ٣٣، وطبعت الكلمة «أدب» بالحروف العادية بمعناها المعاصر الذي ينطبق على literature, littérature عامة، وعلى belles - lettres خاصة.

في إطارها المنمّق الجديد كأنها صيغت صياغة جديدة وارتدت حللاً. غيّرت منظرها كلياً.

ولا نستطيع أن نتتبع هنا مظاهر الهزل في الحضارات المختلفة بحيث نرى موقف كل حضارة من هذه الحضارات من المزاح(٢). ومن العسير حقاً أن نحدّد، في هذا النطاق الضيق، كيف اختار كل أدب من الآداب العالمية المختلفة مرتبة المزاح الخاصة به من بين المراتب الممتدة ما بين «الفطري»، «والمتطور الثقافي». وليس «البدائي» «والمتطور» إلا قطبين تقوم بينهما ألوان ومراحل ومراتب.. أما تقييمنا لهذه الألوان فقد يتأثر، في بعض الأحيان، بمواضعات اجتماعية أخلاقية، أو مفاهيم تسيطر على أذهان أفراد المجتمع في تقييمهم متى يباح الضحك ومتى يمنع. وهنا يكمن الإختلاف الكائن بين القرون الوسطى وأيامنا.. كما نجد اختلافاً بين بلدان وحضارات شتى، ويتعلق تقييمها لهذه الألوان بأذواقها الأدبية والفنية.

وانطلاقاً من هذا، سنحاول أن نميز بين العوامل المختلفة وأن لا نخلط بين المواضعات الاجتماعية الأخلاقية، وبين القيم الأدبية، بحيث لا نجد ظاهرة أدبية قديمة جميلة حقها لمجرد تعارضها مع هذه المسلمات السائدة اليوم.. فهذه المسلمات لم تسيطر بالضرورة على أدب القرون الوسطى.

ما هي مزايا الأدب العربي في هذا المضمار، وما هي مكانة أنواعه وأجناسه (genres) الأدبية الهازلة ضمن السلّم المذكور بين

---

(٢) وقد تبدي الحضارة العربية ـ الإسلامية شيئاً من التردد في موقفها من ظاهرة الهزل. أنظر أدناه، الفصل الثاني: ٤ ـ التحفظ الأخلاقي ـ الديني. وتنعكس في ذلك التردد قيم أخلاقية إنسانية عامة.

«الفطري» «والمتطور»؟ من الواضح أننا، في نطاق هذا البحث، لن نستطيع الإحاطة بكافة هذه الفنون، لذا فستتصدى لقسم منها تنعكس فيه طبيعة الأدب الهزلي انعكاساً صادقاً.

٢. قضايا يثيرها الضحك

قد يتمتع القارئ في عصرنا هذا بمطالعة نصوص هزلية تتحدث عن نفس المواضيع التي سبق لها أن أثارت الضحك قديماً، فشأن هذا القارئ شأن نظيره الذي عاش في القرون الوسطى. وقد يأخذ الضحك هذين القارئين على السواء، مثلاً عند استماعهما إلى نوادر الثقلاء التي هي مدار اهتمامنا هنا. بيد أنه في بعض الحالات يستعصي على قارئ اليوم أن يتجاوب مع هذه الموادّ الأدبية القديمة.

فإذا ما أراد قارئنا المعاصر أن يتمتع بهذه النوادر فلا حاجة به إلى التحليل وإلى تتبّع مراحل التطوّر التي تميز هذا النوع الأدبي الهزلي، أو إلى تعيين مكانته بين سائر فروع الأدب العربي، هازلة كانت أم جادة. فإن كان غرض القارئ الضحك فحسب لتنازل عن كل بحث. أما في المضمار الأدبي فإن مقياس الضحك ـ أي أن نحدد نجاح المواد الهزلية بمجرد إثارتها للضحك أو عدم إثارتها ـ ليس مقياساً صادقاً جديراً أن يؤخذ بعين الاعتبار. فإن هذه المعاني الفكاهية نشأت في بيئة مختلفة تماماً عن بيئتنا، إذ أن عوامل الزمان والمكان تبعدنا عنها. فعندما لا يتمّ الضحك يحقّ لنا أن نتساءل عن السبب. فالهزل القديم قد يتناول مواضيع يتجنبها مجتمعنا اليوم. فمسألة نسبية الهزل تبرز إذاً تلقائياً من خلال ذلك. ونعني بالنسبية هنا: إمكانية الضحك بالنسبة إلى شخصية السامع أو القارئ وبالنسبة

لظروف مجتمعها. ويجب أن يظهر الهزل عند روايته بواسطة تراكيب وصياغات معلومة معتادة. أي تراكيب تحتوي إما على شيء من التناقض المعنوي والشكلي أو على شيء من المفاجأة، مثل دمج بعض العناصر المنطقية بعناصر أبعد ما تكون عن المنطق، وذلك إستناداً إلى المفاهيم المألوفة لدى السامع أو القارئ، مما يؤدي إلى الضحك. فمفاهيم المجتمع وأخلاقه وأذواقه التي تقرر موقفه من هذه الموادّ المسلية، هي التي تحدد في أغلب الأحيان ما إذا ضحك منها السامع فعلاً أو اكتفى بالإبتسامة، أو تمتع بها تمتعاً أدبياً صرفاً. وربّ قارئ يؤهل نفسه مسبقاً للضحك لمجرّد اعتقاده أن تلك المعاني نفسها أو السياق (context) أو اسم الكتاب أو عنوان الفصل تهدف إلى المزاح، فيضحك بالتالي من هذه المواد الأدبية.

لن تتطرق هنا إلى الإجابة عن السؤال الكبير العسير: لماذا يضحك الإنسان؟ فغاية بحثنا إيضاح نوع أدبي بعينه دون معالجة ظاهرة الضحك عامة. ومن الجدير بالملاحظة أننا نجد ضمن دراسات أدباء العرب ونقادهم، محاولات للوقوف على ظاهرة الضحك عامة، وظواهر الهزل العربي وأشكاله الأدبية خاصة[٣]. كما

---

(٣) قد كرّس عباس محمود العقاد في كتابه «جحا الضاحك المبكي»، القاهرة، د.ت. صفحات كثيرة، ١ ـ ٩٥، لموضوع الضحك والمزاح عامة. وانظر كذلك محمد أحمد الحوفي، «الفكاهة في الأدب»، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢ ـ ١٠ بالأخص، أنيس فريحة، «الفكاهة عند العرب»، بيروت، ١٩٦٢، ص ١١ ـ ١٥، حيث يتناول المؤلف مواضيع الهزل عامة، ولكنه يختار دائماً نماذج من صميم الأدب العربي؛ والعطري، «أدبنا الضاحك»، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٢ ـ ٢١. فكل هذه الأبحاث تستهدف استكشاف مزايا الهزل الأدب العربي، مع ميلها أحياناً إلى موضوع طبيعة الهزل العامة.

تناول هذا الموضوع في عصرنا بعض المستشرقين ممن تعرضوا لبعض نواحي المزاح العربي ومزاياه(٤). ومع ذلك، فقد بقي الباب مفتوحا أمام الباحث ليعين الظواهر المميزة للهزل العربي مع التركيز على فرع واحد من نواحيه المتعددة: نوادر الثقلاء.

٣. نماذج من المزاح القديم الذي تمجه أذواقنا اليوم

«وقيل: الأعمى مكابر، والأعور ظلوم والأحول تيّاه.

وتزوج أعمى امرأة فقالت: لو رأيت بياضي وحسني لعجبت! فقال: اسكتي فلو كنت كما تقولين لما تركك البصراء لي.

شكا أبخر [= منتن الفم] ضرسه ففتح فاه الطبيب فشمّ منه رائحة كريهة فقال له: مر كنّاسك يكنسه فهذا كنيف [= مراحيض]!»

عن الراغب الأصفهاني، «محاضرات الأدباء»

---

(٤) انظر مثلاً: F. Rosenthal, *Humor in Early Islam*, Leiden, 1956 والمؤلف يبحث عن التطور الأدبي من خلال تطور بعض الشخصيات الهزلية، وبالأخص شخصية أشعب، دون التطرق إلى ظاهرة الهزل عامة. وفي ص ١ ـ ٦ يتناول المؤلف بالإختصار موضوع موقف الحضارة العربية ـ الإسلامية من المزاح. وانظر كذلك: Ch. Pellat, «Seriousness and Humour in Early Islam» *Islamic Studies* II/3, 1963, pp. 352 - 362 (*Etudes sur l'histoire socio-culturelle*, London, 1976, No - VIII) الذي يصف مكانة الجد والهزل في الأدب العربي وتفكيره، وهو يشير إشارة بسيطة إلى موقف الفقه الإسلامي من المزاح والضحك، وذلك، دون التطرق إلى تفاصيل الموضوع في الفقه وانعكاسها في الأدب، وانظر أدناه، ص ٥٨، وانظر كذلك: Ch. Pellat, «Djidd wa - hazl», *E.I.*, Leiden, 1965, II, 436 - 7.

من خلال النوع الأدبي المسمى بنوادر ذوي العاهات[٥] ـ وكان له بعض الرواج في الأدب العربي القديم ـ نستشفّ مزاحاً يتنافى مع قيمنا الأخلاقية، رغم أن أذواقنا الفنية تستسيغه.

وأصحاب العاهات هؤلاء هم المشوّهون والعاجزون كالعميان والصمّ الخ. فظهور مثل هؤلاء، ممن يشذون عن القاعدة شكلاً

---

(٥) انظر أدناه، ملاحظات ٦ ـ ١٧. وإلى جانب المصادر الواردة فيها، كمؤلفات الجاحظ وابن قتيبة والثعالبي وابن حمدون والزمخشري وغيرهم، نذكر هنا: الحصري، «زهر الآداب»، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٥٨: الصلع، ص ٦٢٨، مكفوف؛ الراغب الأصفهاني، «محاضرات الأدباء»، بيروت، ١٩٦١، ج ٣، ص ٢٨١ ـ ٣٤٤، حيث نجد ضمن «الحد السابع عشر»، أنواعاً من القبح والعاهات، كالعمى والبخر؛ وعند نفس المؤلف، «مجمع البلاغة» مخطوطة طوبقبو، A ـ ٢٣٩٠، ورقات ١١٥ ـ ١١٦ ظ، نجد فصلاً «في القبح ونتن الفم الخ»؛ ابن الجوزي، «أخبار الظراف والمتماجنين»، النجف، ١٩٦٧، ص ٧٧؛ النويري، «نهاية الأرب»، القاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، د.ت، ج ٢، ص ٢٢: نوادر العميان؛ الأبشيهي، «المستطرف»، القاهرة، طبعة مصورة، د.ت، ج ٢، الباب الثمانون، من صفحة ٢٩٢؛ مؤلف مجهول، «نزهة الأدباء»، مخطوطة كمبريدج، القسم الشرقي، ١٢٥٦ ورقة ١٧٥ و: أخبار أصحاب العاهات؛ ابن الشجري، «ترويح الأرواح»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٢٧، ورقة ٦ و: في ذوي العاهات؛ الحفناوي البساري، «بغية الجليس»، نفس المكتبة، ٣٤٤٨، من ورقة ١٢٩ ظ: نوادر أصحاب العاهات وهم العميان والحولان والعوران والأجارد والأحادب والأقارع والأباخر وأصحاب اللحى الطوال.

إذن، فكل ذلك، بالإضافة إلى ما يرد في الملاحظات التالية، يشهد على كثرة تلك الموادّ في كتب الأدب. وانظر كذلك الأبحاث: محمد أحمد الحوفي، الدراسة المذكورة. ص ٢١٧ ـ ٢٢٤؛ أنيس فريحة، الدراسة المذكورة، ص ٥٨ ـ ٧١؛ نشأت العناني، «فنّ السخرية في أدب الجاحظ»، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٢٣ ـ ١٢٧.

ومنظراً، إذا صحّ تعبيرنا هذا، من شأنه أن يثير ضحكاً لدى الأطفال، لأن أذواقهم لم تتهذب بعد وتربيتهم الأخلاقية لم تكمل تماماً. فالإنسان المتحضر اليوم يأخذ بالقاعدة المقبولة (norm) في قيمنا الأخلاقية التي لا تعتبر حالة المشوّه أو العاجز عيباً، بل تحرّم الإشارة ولو بالرمز إلى هذا الشذوذ. إذن، فمجتمعنا يتجنب الضحك «الفطري» الفجّ وهو يقبل في نفس الوقت الأخذ بالهزل المهذّب الذي هو أكثر «تلطيفاً» وتركيباً (sophisticated) كما سنرى عما قليل.

ونلاحظ في الأدب العربي القديم نوعين من «التلطيف»: إما بواسطة رفع النصوص الهزلية إلى مستوى أسلوبي أعلى، كما سيتبيّن لنا من خلال نوادر الثقلاء فيما بعد، أو بواسطة التهذيب الأخلاقي. وإلى هذا النوع الثاني ينتمي خلق التوازن عن طريق إدخال بعض الفقرات التي تدافع عن الناس الذين هو موضوع الضحك.

فإذا أمعنا النظر في موضوع العميان مثلاً اتضح لدينا أن التهذيب الأدبي الفني لا يفي بالمرام، لأن الموانع التي تجابهه تنتمي إلى مضمار الأخلاق، فالتهذيب الفني لا يسعه أن ينفي خشونتها كلياً. ونحن نعود هنا فنكرّر ما نعتقده جازمين من أن المواضعات الأخلاقية يجب ألا تفسد تقديرنا للجانب الأدبي، حتى في حالة تعارضه مع تلك المواضعات.

ومن الجدير بالذكر أن الجاحظ. المتوفى عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٩ م، الذي سنشير أدناه إلى بعض الأخبار المنتشرة عن تشوّهه ودمامته كما يوردها الزمخشري، قد كرّس كتاباً كاملاً لموضوع «البرصان والعرجان والعميان والحولان، يسلك في بعض قطعه مسلك الجدّ

والعلم، وفي بعضها مسلك الهزل.

ويقول الجاحظ في هذا الكتاب: «وسألتني أن أبدأ بذكر البرصان وأثنّي بذكر العرجان ثم اذكر ما قالوا في الأيمن والأعسر، وفي الأضبط وفي كل أعسر يسر، واختلاف طبائع الحيوان في ذلك مع اختلاف حالات البشر في الصغر والكبر، وكيف القول في الأشلّ والأقطع وفي الأضجم والأفقم وفي صاحب اللقوة والأشدق... وما قالوا في الثط والسنوط وفي الأحدب والأعلم وفي الآدر والأفقح...»(٦). ولم يهمل الجاحظ هذا الموضوع في كتاب «البيان والتبيين» أيضاً، حيث نعثر على تعابير كتبت بمنتهى الرزانة: «وهذا الباب يقع في كتاب الجوارح مع ذكر البرص والعرج والعسر والأدُر والصلع والحدب والقرع وغير ذلك من علل الجوارح(٧). فالعلاقة بين الاقتباسين من هذين الكتابين ظاهرة.

وتبعه ابن قتيبة، المتوفى عام ٢٧٦ هـ، ٨٨٩ م، الذي يورد نوادر عن بعض الصفات البدنية السيئة والخبيثة، مثل القبح(٨) والبخر والنتن(٩) والبرص(١٠) والعرج(١١)، والأدر(١٢). إن هذه النوادر،

---

(٦) الجاحظ، «البرصان والعرجان والعميان والحولان»، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٨ ـ ٩.

(٧) الجاحظ، «البيان والتبيين»، القاهرة، ١٩٦٨، ج١، ص ٩٤-٩٥، وقد ضاع «كتاب الجوارح»، وانظر Ch. Pellat, «Essai d'inventaire», *Arabica*, III, 1956, p. 156، انظر كذلك ما يقتبس عنه ابن الجوزي [أعلاه، ملاحظة].

(٨) ابن قتيبة، «عيون الأخبار»، القاهرة، ١٩٦٣، ج ٤، ص ٣٢.

(٩) نفس المصدر، ص ٦١.

(١٠) نفس المصدر، ص ٦٣.

(١١) نفس المصدر، ص ٦٧.

(١٢) نفس المصدر، ص ٦٨.

وإن اقتربت أحياناً من العلم والشعر، إلا أن مجرد اقتباسها في فصول خاصة بكل منها، مع القطع الهزلية الحقيقية، يثير الضحك. وذلك، على حساب الرجال والنساء معاً، على الرغم من ورود هذه المواد الأدبية كلها في كتاب «النساء»، أي في الجزء المخصص لموضوع النساء ضمن مجموعة ابن قتيبة.

والثعالبي، المتوفى عام ٤٢٩ هـ/١٠٣٨ م، اهتمّ بالتعابير الأدبية المستعملة في المراسلات وبما يليق بأسلوب الموظفين، أي ببراعة القلم واللسان. وتكثر في كتبه العبارات والزخارف اللسانية التي تصف الدمامة والعاهات وأصحابها[١٣]، وفي هذه الزخارف شيء من الهزل، وهو يوردها ليسهّل على «الكُتّاب» ـ أي موظفي الدولة وفقاً لمصطلحات القرون الوسطى ـ الإستفادة من هذه العبارات وتزيين رسائلهم بها، ساخرة كانت أم غير ساخرة.

ونورد فيما يلي نموذجين يمثلان الاهتمام الذي يوليه الأدب لهذه الصفات ورواجها في مجموعاته، وهما «التذكرة» لابن حمدون، المتوفى عام ٥٦٢ هـ/١١٦٨ م، و«ربيع الأبرار»

---

(١٣) الثعالبي، «سحر البلاغة، دمشق، ١٣٥٠ هـ، ص ٧٤ ـ ٧٥ مثلاً: فصول عن «القبح والدمامة والحقارة» وعن «البخر وترك التنظف» آلخ. كما أن الثعالبي أورد فصلاً خاصاً «في الكناية عن المقابح والمثالب والعاهات»، ضمن «الكناية والتعريض»، طبعة مصورة، بغداد وبيروت، ١٩٧٢، ص ٣٢ ـ ٣٣. وذكر في هذا الفصل العمى والبرص وما شابههما، وانظر كذلك الثعالبي، فيما جمع عنه المقدسي، «اللطائف والظرائف»، القاهرة، ١٣٢٥ هـ، ص ١١٤ ـ ١١٥؛ والثعالبي، «لطائف المعارف»، ليدن، ١٨٦٧، ص ٦٦، ٦٧، ٦٩: العور والعمى والصلع؛ والثعالبي، «التحسين والتقبيح»، مخطوطة راغب باشا ـ ١٤٧٣، ورقة ١١٩ و: «تحسين الأخلاق السيئة» ومنها العمى والأمراض...

للزمخشري، المتوفى عام ٥٣٨ هـ/ ١١٤٤م.

ففي «التذكرة الحمدونية»، وردت في الباب الثامن والأربعين «نوادر ذوي العاهات»(١٤). ومن جملة ما ذكر فيها نكت وفكاهات عن عميان وعرجان وصلع الخ.

وفي «ربيع الأبرار» للزمخشري(١٥) نجد الباب السابع والسبعين «في الأمراض والعلل والعاهات» الخ. وجدير بالإشارة ما ينسب فيه إلى الأصمعي، المتوفى عام ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م، من الأقوال الهازلة: «العميان أكثر الناس نكاحاً والخصيان أَحَدّ الناس أبصاراً، لأنهما طرفان»(١٦). وبعد هذا القول ترد مقتطفات من الأشعار والأخبار الأدبية، عن بشار بن برد وكيف نظم شعراً في وصف عماه، وعن الجاحظ وكيف وصفت الأخبار والحكايات قبحه وفالجه... وهناك أيضاً «ألاعيب» شعرية بارعة للفقيه منصور. وإلى جانبها بعض الفكاهات الأدبية التي تذكر النتانة، أي تصف لنا الأبخر والمنتن وما شابههما...(١٧). ويحمل الأدب، عند تناوله لأكثر النوادر حول

---

(١٤) ابن حمدون، «التذكرة»، المسماة أيضاً «التذكرة الحمدونية»، مخطوطة راغب باشا، ١٠٨٤، ورقات ١٢٥ ظ ـ ١٢٦ و، ومخطوطة دار الكتاب ١٥١٤ ـ أدب، ورقة ١٧٥، من نفس المصدر.

(١٥) الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة ترخان والده، ٢٧٣، ابتداء بورقة ٢٥١ ظ، ومخطوطة القاهرة، دار الكتب، ١٥٥ ـ أدب، ورقة ٣١٦ ظ. ولم نعثر على هذا الفصل ضمن الجزء الأول المطبوع منه في بغداد، ١٩٧٦، ولكن يوجد فيه فصل آخر في ذكر القبح والحسن، ص ٨٣٩.

(١٦) نفس المخطوطة، ورقة ٢٥٢ و.

(١٧) نفس المخطوطة، ورقة ٢٥٢ ظ، وهذه الأبيات المقتبسة عن منصور الفقيه وردت مع تفاصيل عن حياته عند الحصري، «زهر الآداب»، الطبعة المذكورة، ص ٨٢٦.

هذه العاهات، طابعاً هزلياً، بيد أنه، في بعض الأحيان، لا تتعدى هذه النوادر معنى الأخبار والقصص الجدية. وقد يكون سردها عين الجد على أن سياق الكلام في الفصل أو في الفقرة يمتاز بالمزاح..

ولا شك أن هذه الظاهرة مرتبطة، ولو جزئياً، بالجو السائد في القصور العباسية ومنازل الطبقات العليا المهذبة والتي كان ينتمي أفرادها إلى مستهلكي الأدب وإلى المولعين بآداب السلوك والأناقة والعادات الفارسية، وهي آداب يصعب مراعاتها أصلاً. وما أقذار الجسم وانتشار روائحه الداخلية إلا نفيض لآداب السلوك هذه أو خروج عليها[18]، إذ ليس في نظر «الظرفاء» المهذّبين أخبث فظاظة من ذلك. فذكر مثل هذه الأقذار يضحك الطبقات الشعبية أيضاً، وينعكس ذلك في مداعبات أبطال الحكايات الرائجة في محافل المجتمع كله[19]. إن التناقض بين التصرف اللائق والأعمال الشاذة هو الذي يولّد الضحك لدى السامع والقارئ.

فلنعد إلى مجموعة الزمخشري الأدبية، حيث يقتبس المؤلف حكمة مشهورة يدافع فيها الإمام علي بن أبي طالب عن العميان: «وربما أخطأ البصير وأصاب الأعمى رشده»[20]. ثم يذكر

---

(١٨) انظر أدناه، الفصل الثاني: ١ ـ بين التلقائية والصنعة؛ ٣ ـ نظرية النديم المتأدب.

(١٩) مثلاً، جحا، عند أبي حيان التوحيدي، «البصائر والذخائر»، دمشق، ١٩٦٤، ج ٤، ص ١١٠ ـ ١١١؛ وكذلك بهلول، عند الحصري، «جمع الجواهر»، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١٦٣. فالمؤلفان لا يتجنبان ذكر بعض «الأوساخ» البسيطة؛ ومع ذلك فانظر أدناه، الملاحظتين ٢٦، ٣٧، وما ورد فيهما عن جحا.

(٢٠) انظر الحكم التي جمعت عن علي بن أبي طالب، عند القضاعي، «دستور معالم الحكم»، القاهرة، ١٣٣٦ هـ، ص ٢٦.

الزمخشري من جديد النتانة وأصحابها[٢١]، ثم يعود، ثانية وثالثة، إلى التحدث عن الفالج والفلج...[٢٢].

وضمن النصوص عن الثقلاء التي يجدها القارئ منشورة في نهاية هذا البحث لأول مرة، ستطالعنا فقرة تضاهي في أسلوبها الساخر ما قد اقتبسناه من أقوال الأصمعي. فهذه الفقرة تتناول، فيما تتناوله، السخرية على حساب ذوي العاهات وخلقهم: «من العجائب [أي ما يندر وجوده]: ... أحدب ثقيل... وكوسج لا يكون خبيثاً.. وأعمى ذو حياء». فالمؤلف، واسمه الميلوي[٢٣]، عاش في القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، وقد حذا، عند جمعه لهذه «العجائب»، حذو أدباء القرون الوسطى، مثل الثعالبي، والمتوفى عام ٤٢٩ هـ/١٠٣٨ م، الذي قد ذكر بين «العجائب»: «أعمش كحالاً وأعمى منجماً»[٢٤]، ومثل الراغب الأصفهاني، المتوفى عام ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م، الذي أدرج بين عجائبه: «منجماً أعمى، ومنادياً أخرس، وكحّالاً أرمد»[٢٥]، أو مثل جلال الدين السيوطي، المتوفى عام ٩١١ هـ/١٥٠٥ م، الذي اقتبس قولاً آخر منسوباً للأصمعي: «ليس في الدنيا أعمى إلا ثقيل، ولا

---

(٢١) الزمخشري، نفس المصدر، ورقة ٢٥٣ و.

(٢٢) نفس المصدر، ورقات ٢٥٤ و، ٢٥٦ و.

(٢٣) الميلوي «رحلة الغريب»، مخطوطة رئيس الكتاب، ٧٩٨، ورقات ٢٢٩ ظ ـ ٢٣٠ و، وانظر أدناه، الفصل الثالث: رقم ٥ ـ فصل عن الثقلاء للميلوي.

(٢٤) الثعالبي، «التمثيل والمحاضرة»، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٢٤.

(٢٥) الراغب الأصفهاني، «محاضرات الأدباء»، الطبعة المذكورة، ج ٢، ص ٤٦٠.

أحدب إلا خفيف»[٢٦]. إذن، لم يرأف من صاغ هذه التعابير الهازلة بالعميان وبأشباههم من ذوي العاهات. ويبدو هذا الموقف، في مفاهيمنا العصرية على الأقل، وكأنه إخلال بقواعد الاحترام الواجب لهم، مع أنه يترتب على قارئ هذه الموادّ القديمة أن يميز تمييزاً واضحاً بين هذا المزاح الذي كان آنذاك يعتبر «خفيفاً» ومقبولاً، وبين السخرية والاستهزاء...

وعلى الرغم مما سبق قوله، فلا تخلو هذه الفصول والفقرات من ضرب من التوازن الداخلي، فقد رأينا في طياتها قطعاً أدبية تحمل طابع الدفاع عن العميان وأشباههم. كذلك فإن بعضها يتعدى هذا النطاق مستهدفاً مواساة دوي العاهات هؤلاء: ألم يكن بعض نوابغ الأدباء من ذوي الدمامة والتشوّه؟ ألم يضحكوا، هم أنفسهم، من عاهاتهم؟ وحتى في أوائل القرن الثاني عشر الهجري، أواخر القرن السابع عشر الميلادي، ألفت رسالة جدية ـ هزلية في موضوع الدمامة، لأن المؤلف العثماني الذي كتبها ربما كان دميماً فدافع عن نفسه معتمداً على ذكر دمامة الحريري وغيره من الأدباء المرموقين[٢٧].

---

(٢٦) السيوطي، «اتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء» مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٤٧٤، ورقة ١٠٩ و، القسم الشرقي ـ ٢٧٧٢، ورقة ٤ و.

(٢٧) عالم محمد بن حمزة الايديني الكوزلحصاري، ويكتب اسمه أحياناً: الكوز عاطف أفندي، ٢٨٤٠، ورقات ١٠٩ ـ ١١٠ و. ولم يكتب العنوان في المخطوطة، ولا يعرفها: C. Brocklemann, *G.A.L.*, G II, 437, S II, 648 - 9 - والمخطوطة منسوبة في فهرست عاطف أفندي إلى «مؤلف مجهول»، بيد أنه لا شك أن المؤلف هو الكوزلحصاري، لأن مؤلفها يذكر اسمه بحذف إحدى نسبتيه، في ختام هذه الرسالة وفي ختام قسم آخر من رسائل المجموعة، ونحن بصدد نشر بحث عن رسالتين له ونصّهما، انظر مقالتنا =

٤. البذاءة وحدودها

أما المزاح الفاحش فالإشارة الوجيزة إليه تكفي. فالمزاح البذيء هو الآخر بمثابة فرع من الفروع التي تدخل في نطاق الأدب، تارة مهذبة وطوراً بشكلها الفطري الفجّ.

والحقيقة أن بعض مجموعات الأدب لا تخلو من نوع الهزل البذيء هذا الذي يدور حول مواضيع يعتبرها بعض قراء اليوم، أو على الأقل المحافظون منهم، مواضيع «غير لطيفة»، كالحياة الجنسية وما يشبهها(٢٨) إلا أن أغلب قراء الأدب العربي في القرون الوسطى، وهم المثقفون و«الظرفاء» المهذبون، لم يكونوا على ما يظهر ليجدوا

= التي ستنشر في *Bibliotheca Orientalis*, XLIII تحت عنوان «Genizah and Genizah-Like Practices». أما دمامة الحريري المذكورة في الرسالة فانظر مثلاً ابن خلكان، «وفيات الأعيان»، بيروت، ١٩٦٨ ـ ١٩٧١، ج ٤، ص ٦٦ ـ ٦٧؛ النواجي، «حلبة الكميت»، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٨٧ ـ ٨٨؛ نور الدين الحسيني المكي، «نزهة الجليس»، النجف، ١٩٦٧، ج ٢، ص ٦.

(٢٨) على سبيل المثال: الجاحظ، الذي لا تندر تلك المواضيع في مؤلفاته، لقربه من الحياة الطبيعية وابتعاده عن التكلف، «الجواري والغلمان»، تحقيق شارل بلا، بيروت، ١٩٥٧، ص ٥٦ ـ ٧٥، حيث يورد المؤلف «طرفاً ملحاً» هزلية؛ وعند ابن قتيبة مثلاً، كتابه المذكور، الفصل عن النساء كما ذكرنا أعلاه، ملاحظة ٨ ـ ١٢؛ ابن عبد ربه، «العقد الفريد»، القاهرة، ١٩٤٠ ـ ١٩٥٣، ج ٦، ابتداء بصفحة ٤٤١؛ الأبي، «نثر الدر» مخطوطة كوبريلي ـ ١٤٠٣، ضمن الفصل الثالث، ورقات ١١٦ و ـ ١٧٣ و، الأبواب ١٤، ١٥، ١٦، وضمن الفصل السادس، باب ١٦، ورقات ٣٦١ ظ ـ ٣٦٣ و؛ الراغب الأصفهاني «محاضرات الأدباء»، الطبعة المذكورة، ج ٣، ابتداء بصفحة ٢٠٠، بعض فصول «الحد الخامس عشر»، وابتداء بصفحة ٢٤٢، جميع فصول «الحد السادس عشر». وحريّ بنا أن نكتفي بهذه المصادر.

غضاضة في مثل هذه المادّة الهزلية البذيئة إذ أنها تتداخل، في كثير من الأحوال، مع أبواب الأدب وتصبح جزءاً لا يتجزأ منها، فتخفّ خشونتها بفضل سائر الموادّ العلمية والأدبية المتوفرة في كتب الأدب والمحيطة بهذه المادّة.

ومن المعروف أنه يوجد في كثير من الآداب العالمية فروع من النتاج الأدبي لا يعترف بها الأدب «الرسمي»، أي أدب القراء المثقفين. وتنمو هذه الفروع الأدبية إلى جانب الأدب «الرسمي» المقبول وتنتشر شفهياً أو تطبع في بعض المطابع التجارية. ومما تشتمل عليه هذه الفروع، قصص وخرافات وحكايات للأطفال وفكاهات وأنواع شتى من الهزل البذيء وما يشبه ذلك.. فالنتاج الأدبي ضمن الفرع البذيء المذكور هو نوع مستقل يتجنّبه المجتمع عادة ويقرأه البعض في الخفاء. إلا أن الحاجز الذي يفصل النتاج الأدبي «الرسمي» المقبول عن نتاج الفروع المذكورة لا يمنع بعض التأثيرات المتبادلة ولا يحول دون تسلّل بعض الموادّ من مضمار إلى آخر، مما يؤدي أحياناً إلى التجدد والازدهار فيهما.

أما المضمار غير «الزسمي» ضمن نطاق الأدب العربي فيتعذر علينا أن نختار مصطلحاً يليق به، إذ أن الباحثين في عصرنا يسمّونه أحياناً: أدباً «شعبياً»، أو أدباً «شاذاً عن المستوى المقبول»، أو أدباً «غير معترف به»، أو أدباً «ما وراء الرسمي» الخ (non-standard, non-canonical, non-canonized) [وربما استحق هذا المضمار في الأدب العربي في القرون الوسطى أن يطلق عليه مصطلح خاص: sub-adab أو para-adab إلا أن مثل هذا المصطلح لم يخترع بعد!]، وتختلف هذه المصطلحات من حيث اعتمادها على

اللغة والأسلوب أو على المضامين أو على المكانة التي تحتلها هذه الفروع في الأدب. والواقع أنه من الصعوبة بمكان أن نرى في النصوص البذيئة في أدب القرون الوسطى أدباً ينتمي كلياً إلى ما يسميه الباحثون بأدب «ما وراء الرسمي»، و«التوازن» بينهما ضمن مجموعات الأدب، كما قد ذكرنا أعلاه.

وبخلاف هذه المجموعات التي تحتوي على كل أنواع الجد والهزل، المهذب والبذيء، توجد مؤلفات أخرى يمكن إطلاق مصطلح «ما وراء الرسمي» عليها لكثرة بذاءتها، مثلاً ـ «نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب»[٢٩]. فالمؤلف يشير في العنوان نفسه(!) ثم

(٢٩) التيفاشي، المتوفى عام ٦٥١ هـ، ١٢٥٣ م، «نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب»، مخطوطة طوبقبو، A، ١٣١٧، وقد نشر رينيه خوام R. Khawam ترجمة فرنسية، *Délices des coeurs*، لهذا الكتاب تعتمد على مخطوطة أخرى، توجد في المكتبة الأهلية الباريسية، وطبعت الترجمة في باريس، ١٩٧١، مع أن الأصل لم يطبع بعد، ومما يشبه ذلك كتاب عثمان الصريحي، «نزهة الأفراح»، مخطوطة أكسفورد، Marsh - 1، حيث يقول المؤلف في ورقة ٢ ظ أنه ألفه لنفسه وأنه قرر أن يحذر من أن يراه أحد غيره: «ذخرته وقد حلفت يميناً مؤكداً ألا أعرته إلا ببرهان وثيق لصاحب قد عرفته...»، وفي هذا القرار شيء من الاعتراف بمكانة هذا الكتاب أو هذا النوع من الكتابة، أي بأنهما «ما وراء الرسمي والمسموح». وذلك، على الرغم من المواضيع التي يتناولها الكتاب منتشرة في الأدب العربي، مثلاً عند النواجي، «مراتع الغزلات»، مخطوطة المكتبة الأهلية، باريس، القسم العربي ـ ٣٤٠٢، كما نشرحه في القسم الثاني من مقالتنا «Kings and craftsmen» التي هي تحت الطبع في *Studia Islamica*. إذن، من العسير أن نعيّن الحدود بين المسموح وغير المسموح. أنظر كذلك الموقف، الذي وقفه السيوطي في عدم ذكره لبعض كتبه، ضمن قائمة مؤلفاته، أدناه، ملاحظة ٣٢.

في مقدمة الكتاب، بشكل لا يقبل التأويل، إلى أن كتابه يحوي أصنافاً لا ترد عادة في الكتب. وليس هذا الكتاب فريداً من نوعه، بل ثمة كتب عديدة يقتصر محتواها على الأدب البذيء والموادّ التي «لا توجد في كتاب. . .»، منها ما صيغ صياغة أدبية على شكل قصص ونوادر وفكاهات. . .[٣٠] ومنها ما صيغ صياغة شبه علمية طبّيّة. . .[٣١]، ولا يختلف الأدب العربي في ماهية نتاجه هذا عن

---

(٣٠) قارن مثلاً بين أنواع المنحرفين من الغلمان والقحاب عند التيفاشي، المصدر المذكور، وبين ما ورد عند ابن فليته [أو ابن قليته]، «رشد اللبيب»، مخطوطة جامعة استانبول، عربجة، ٢٤٠٠، بالأخص ورقات ٤٥ و ـ ٥٠ ظ، وهو من أقدم المؤلفين في هذا الموضوع، عاش في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث الهجري، أي النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، إذا صحّ ما حدده C. Brockelemann, *G.A.L.*, G - I, 231-2, S I, 415-6 - وذلك مما يثبت أن أمامنا مواضيع قصصية (motifs) أدبية جعلها بعض المؤلفين أخباراً وفصولاً عامة عن «أنواع» من النساء ولم يحكوها كما تحكى القصة وإنما بشكل تعميم (generalization) ينطبق على عدد كثير من اولئك النساء. . . وتتوفر في المكتبات ومجاميع المخطوطات كتب شبيهة بذلك، مع شيء من الإختلاف، ككتاب ابن كمال باشا وكتاب للنفزاوي [وهناك من يقول: النفراوي] وغيرهما نتجنب ذكرهما هنا لأسباب مفهومة. . . مع أن بعض الحكايات والنوادر ذات القيمة الأدبية تتخللها بين الفينة والفينة.

(٣١) إن جلال الدين السيوطي المشهور، الذي صنّف كتباً ورسائل في جميع ميادين العلم والدين والأدب، لم يترك موضوع الحياة الجنسية، وتناوله بكل طهارة ورزانة في كتاب: «الوشاح» ومؤلفات أخرى، وراجع C. Brocklemann, *G.A.L.*, G - II, 153, S - II, 192 وانظر مثلاً، مخطوطة، المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٥٨١٨، وكذلك القسم الشرقي، ١٣٠٠٧ [ولم تذكر المخطوطة الأخيرة بعد في أي فهرست]، ثم الحق به السيوطي ذيلاً أدبياً: «نواضر الأيك في نوادر ال. . .»، وبحوزتنا ميكروفيلم =

الكثير من الآداب العالمية(٣٢).

= عن مخطوطة أسعد أفندي، ٢٤٧٧، ورقات ١٥ ـ ١١٥ ظ. ولم يذكر السيوطي، في قائمة مؤلفاته، كتبه هذه عن الحياة الجنسية، سواء الكتب الفقهية أو الأدبية. ولذلك فهي ناقصة في E.M. Sartain, *Jalal al-Din*, Cambridge, 1975 ولكنها مذكورة، كما قيل أعلاه، عند Brocklemann والمؤلف يعترف في ورقة ١٥ ظ ـ ١٦ و، من هذا الكتاب الحافل بالنوادر والملح بأن الكتاب بمثابة ملحق أدبي لكتابه «الوشاح» المذكور. وكثيراً ما يختتم السيوطي مؤلفاته الجدية القصيرة نسبياً بنبذة من المواد الأدبية المستظرفة. وبما أن كتابه الفقهي العلمي «الوشاح»، عن الحياة الجنسية، مطول فقد أفرد له السيوطي ملحقاً مستقلاً. أو ليس معنى ذلك أن الحدود بين المشروع وغير المشروع، أي بين ما يذكر في كتاب وما «لا يذكر في كتاب» اختلفت آنذاك عما نتوهمه اليوم في بعض الأحيان؟ ومهما كانت تلك الحدود فإن نزاهة السيوطي وطهارته الفقهية وحتى الأدبية ليس فيهما أي شك.

(٣٢) ثمة حكايات في الأدب العالمي عن القحاب المتلصصات كما ورد في «الديكامرون» للكاتب الإيطالي Boccaccio، وانظر V. Branca, *Boccaccio medievale*, Firenze, 1975, pp. 169 - 180 وبالأخص انظر، في حواشي ذلك البحث، مصادر الحكاية في الآداب العالمية. وعلاوة على ما ورد فيها، هناك مصادر عربية لتلك الحكاية، وقد قابلنا الحكاية الإيطالية مع نادرة عن احدى بغايا مكة، وردت عند ابن المعتز «طبقات الشعراء المحدثين»، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٣١٠ ـ ٣١٣، ومع قصة وردت، في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، عند التيفاشي، المخطوطة المذكورة، ورقة ٢٥ ظ ـ ٢٦ و، قمنا بهذه المقارنة ضمن مقالتنا «البيئة الشعبية محور الأدب القصصي»، الجديد، حيفا، ج ٢٢، ١٩٧٥، ص ٣٧ ـ ٤٦. أما أقدم هذه الحكايات، قبل ابن المعتز، فلسوء الحظ قد ضاعت رسالة الجاحظ عن مزايا اولئك النساء، وانظر: Ch. Pellat,« Essai d'inventaire», *Arabica*, III, 1956, p. 171: Qihâb وقد اعتنى بعض المؤلفين بتصرفات النساء الشاذة، قبل الجاحظ، وانظر مثلاً «كتاب بغايا قريش» للهيثم بن عدي المذكور عند ياقوت الرومي، «معجم الأدباء»، القاهرة، ٨ ـ ١٩٣٦، ج ١٩، ص ٣١٠، =

أما موضوع تصوّر الأدب العربي «الرسمي» المقبول لحدوده من حيث استعمال الهزل البذيء و«التوازن» الحاصل فيه بين الجد والهزل فسيزداد وضوحاً في الفقرات والفصول التالية.

٥. تداخل التافه والرزين في الأدب

وهنا يتبادر إلى الذهن عدد من الأسئلة: لماذا يشتمل الأدب أحياناً كثيرة على أوصاف «للعاهات» وعلى مزاح يظهر فظاً؟ ولماذا تبدو هذه الظاهرة لأعيننا غريبة؟ وما هي المبررات لذلك؟

لم يحتو إطار الأدب، أي النوع الأدبي المتعدد الفروع، والذي دعي في القرون الوسطى باسم أدب، لم يحتو على نفس فروع النثر والنظم بالمفهوم الحديث للمصطلح أدب (literature, littérature). فقد تكوّن من خليط امتزجت فيه منتخبات نثرية لموادّ أدبية وثقافية ونظرية وعلمية ولغوية ودينية. وتتخلل هذه المواد، بين الفينة والفينة، اقتباسات من الشعر، أو بكلمة أخرى فإن مجموعات الأشعار المحضة والدواوين الخاصة بالشعراء لم يضمها، في تلك الفترة، مصطلح «الأدب»، وأفرد بها مصطلح «الشعر». فالشعر، آنذاك، فرع مستقل تماماً. ومعنى ذلك أن أهل القرون الوسطى قد لجأوا إلى استعمال مصطلحين اثنين مقترنين لتحديد ما يسمى بالثقافة الأدبية، التي هي في لغتنا اليوم مصطلح واحد: أدب (literature,

= وانظر كذلك في ملاحظة ٣٠ أعلاه ما نذكر عن ابن قليته، الذي عاش في أواخر القرن الثاني الهجري. فأمامنا، إذاً، تسلسل من القصص والحكايات الهزلية في هذا الموضوع من بداية الأدب العربي إلى نهاية القرون الوسطى...

(littérature بمدلوله المألوف، وبمفهومه الضيّق كفن جميل -belles lettres[٣٣].

ولكن الأدب، بمفهومه الرائج في القرون الوسطى، اشتمل على عناصر أدبية متنوعة، إذ أننا نعثر في كتب الأدب على كتابة جدية إلى جانب كتابة مسلية[٣٤] وعلى قطع تمتاز بالرزانة إلى جانب قطع «خفيفة». إذن، فمن هذه الناحية، لا نعجب من وجود بعض الهزل الفجّ أو المنفور منه اليوم، في تلك الكتب، وفيما يلي أهم المبررات لذلك. ولكي نفهم الأدب القديم، تافهه ورزينه، فهماً حسناً علينا أن نذكر:

أولاً ـ اختيار المقاييس الملائمة:

كما سبق أن أشرنا، علينا أن نحذر كل الحذر من الانقياد وراء المقاييس السائدة في عصرنا والمفاهيم الذوقية الحديثة، أصيلة كانت أو دخيلة، صريحة كانت أو كاذبة. لا عيب في استعمال مثل هذه

---

(٣٣) انظر أعلاه، ملاحظة ١، وكذلك راجع ك.ا. نالينو، «تاريخ الآداب العربية»، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢١ ـ ٤٦.

(٣٤) انظر، مثلاً، الجاحظ، «البخلاء»، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١، ٥ ـ ٧؛ «الحيوان»، القاهرة، ١٩٦٩، ج ٣، ص ٥ ـ ٧. «مفاخرة الجواري والغلمان»، الطبعة المذكورة، ص ٨ ـ ٩، ٥٦، «التربيع والتدوير» دمشق، ١٩٥٥، ص ٤٦ ـ ٤٨، ٥٢ ـ ٥٣، ٦٥ ـ ٧٠؛ وراجع كذلك الحصري، «زهر الآداب»، الطبعة المذكورة، ص ١٥٩ ـ ١٦٠، «جمع الجواهر»، الطبعة المذكورة، ص ٢٨، ٣٠. فبعض هذه الفقرات كتبت لتشرح لنا كيفية مواجهة الملل والضجر، وذلك بواسطة الملح والنوادر. أما موضوع المزاح وموقف الكتاب منه فسنذكر عدداً أكبر من الكتّاب الذين عبروا عن أنفسهم وتناولوا هذا الموضوع، أدناه، الفصل الثاني: ٤ ـ التحفظ الأخلاقي ـ الديني.

المقاييس لنقف على آداب عصرنا، وإنما العيب الكبير هو في تطبيقها على الظواهر الأدبية في القرون الوسطى.

ثانياً ـ عدم الخلط بين الأخلاق وبين الأدب:

لقد ركزنا على التمييز القائم بين فكاهة قديمة على حساب بخيل أو ثقيل قد يستلطفها قارئ اليوم، وبين فكاهة فظة على حساب أعمى ينفر منها القارئ في عصرنا، ووصفنا هذا التمييز بأنه اجتماعي أخلاقي. فمن الناحية الأدبية علينا أن نقيّم هذا الصنف الأخير، أي النوادر المستهجنة والمنفور منها اليوم، تقييماً إيجابياً لائقاً. فحسب المقاييس الأدبية الصرفة لا تختلف نوادر «ذوي العاهات» المستهجنة عن نوادر البخلاء المستحسنة، بل قد نلاحظ أحياناً في ثنايا نوادر «ذوي العاهات» إبداعاً فنياً بمعنى الكلمة.

ثالثاً ـ ملاحظة تقيد الأدب بقيود يفرضها على نفسه في استعمال الهزل:

وليس معنى هذه القيود تجنّب الخوض في الخشن أو حتى في السخيف، بين الفينة والفينة، وإنما معناها أن الإنهماك، عن قصد وعمد وبدون توازن داخلي، في مثل تلك الموادّ الأدبية الشاذة، يعتبر في نظر الأدب نفسه تجاوز لحدود الأدب المقبول ووصول إلى ما وراء المقبول أي: ما لا يوجد في كتاب[٣٥]. فأبطال الحكايات الشعبية، كبهلول وجحا على سبيل المثال، يساهمون مساهمة ما في الأدب المهذب ويتّسمون بالقدرة على التنقل بين شتى أصناف النتاج الأدبي، الشعبي والراقي، أي الانحدار والارتقاء بين طبقات الأدب

(٣٥) انظر أعلاه، هامش ٢٩.

المختلفة، ويتميزون كذلك بالتحول من شخصيات شبه جدية إلى شخصيات هزلية خالصة(٣٦). وعلى كل حال فإنه لمن العسير حقاً

---

(٣٦) فلبهلول مثلاً، وجوه كثيرة: زاهد واعظ يعظ الخلفاء وينتقد تصرفات أهل الذمة، وهو مع ذلك شاعر وفي شعره نغمة صوفية: مخطوطة لمؤلف مجهول، بدون عنوان، المكتبة الأهلية، باريس، القسم العربي، ١٦٥٣، ورقة ١ و؛ ابن المطهر الحنفي، «انس الوحيد»، فاتح ـ ٣٦٧٦، ورقة ٣٢ و؛ جمال الدين الأسنوي «كتاب النصيحة الجامعة» ضمن: M. Perlmann, *Goldziher Volume*, Budapest, 1948 - 58, p. 77، وكذلك «القصيدة البهلولية». مخطوطة ١٣٧ ـ - Acadليدن، ابن العربي، «محاضرات [محاضرة] الأبرار»، بيروت، ١٩٦٨، ج ١، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠، نور الدين الحسيني الموسوي المكي، «نزهة الجليس»، الطبعة المذكورة، ص ١٦٣، مع أنه يورد في ص ١٦٤: «قيل: إن بهلولاً كان يستعمل الجنون ستراً على نفسه». وانظر كذلك ابن حمدون، «التذكرة»، مخطوطة دار الكتب في القاهرة ١٥١٤٠ ـ أدب، ج ١١، ورقة ١٩٠، ومخطوطة مكتبة ليدن، القسم الشرقي، ٦٨٢٣، ورقة ١٧٨: «من مجانين كوفة»؛ ابن الجوزي، «كتاب الأذكياء»، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢١٦ ـ ٢١٧؛ «أخبار الظراف والمتماجنين»، الطبعة المذكورة، ص ٨٠ ـ ٨٢؛ الوطواط «غرر الخصائص»، القاهرة، ١٢٨٤ هـ، ص ١٢٤؛ محمد بن ابراهيم المقرىء، «كتاب الدرة المضيئة»، مخطوطة جامعة استانبول، عربجة، ٤٥١٥، ابتداء بورقة ١١٥: «نوادر البهاليل والمجانين»؛ ابن الحاجّ القرطبي، «نزهة الألباب»، مخطوطة القاهرة، دار الكتب، ١٣٧ ـ أدب، ز ـ ١٤٠٩٦، ورقة ٨٤ و؛ مؤلف مجهول، «نزهة الأدباء»، مخطوطة كمبريدج، القسم الشرقي، ١٢٥٦، ورقة ١٧٤ و: «في أخبار البهاليل»؛ الكرمي، «غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح»، باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٢٠٢٦، ورقة ٨٨ ظ.

وبهلول، في الوقت نفسه، أنجح الرجال وأسعدهم في الحياة الجنسية وهو ممن ينسب إليه شعر سخف ومجون، كما ورد وصفه عند النفزاوي ترجمة R. Khawam الحديثة المسماة *La prairie parfumée* باريس، ١٩٧٦، ص ٧٦ ـ ٩٨، فشتان ما بين بهلول الزاهد المتدين وبهلول الخليع الماجن. . . =

. . . .

= أما جحا الذي انتقلت نوادره من بلاد إلى بلاد ومن جبل إلى جبل، فاختلطت شخصيته مع نصر الدين خواجه ثم رجعت إلى الأدب العربي أغنى وأشمل [انظر البيبليوغرافيا عند: F. Rosenthal, *op. cit.*, p. 2, n. 1 Ch. Pellat, « Djuha», *E.I.*, new edition, Leiden, 1965, II, pp. 590 - 592 J. Déjeux, *Joha - héros de la tradition arabo - berbère*, Québec, 1978 وهي تحتوي على ببليوغرافيا طويلة كاملة ابتداء بصفحة ١١١، ولكنها ترتكز على مغامرات جحا كما حكيت في أفريقيا الشمالية]. وانظر كذلك البيليوغرافيا عند محمد رجب النجار، «جحا العربي»، الكويت، ١٩٧٨، من ص ٣١٥؛ أما «شخصية» جحا فنذكر وجهين من وجوهه الكثيرة: الرجل الفاتر العاجز من ناحية الحب والجنس والذي تخدعه امرأته ويخدعه الناس كافة، انظر: عبد الستار فراج، «أخبار جحا»، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٩٦، العطري، الدراسة المذكورة، ص ٤٦ ـ ٥٠. ولورود أكثر نوادر الأدب العربي المتعلقة بجحا ضمن كتاب عبد الستار فراج، نكتفي بذكر شخصية جحا المخدوع. أما «شخصية» جحا المغفل فتظهر عند أبي حيان التوحيدي، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١١٠ ـ ١١١؛ الأبي، «نثر الدر»، مخطوطة رئيس الكتاب ـ ٩٤٠، ورقات ١٣٤ ظ ـ ١٣٦ و؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة ترخان والده، ٢٧٣، ورقة ٢٦٦ ظ، ابن الجوزي، «أخبار الحمقى والمغفلين»، بيروت د.ت.، ص ٤٤ ـ ٤٨؛ مؤلف مجهول، «كتاب أنيس»، مخطوطة فاتح، ٣٦٨٣، ورقات ١٢٢ ظ ـ ١٢٦ ظ؛ وانظر كذلك السيوطي، «تحفة المجالس»، القاهرة، ١٩٠٨، ص ٣٤٨؛ الستيوي، «زبد الأدباء»، المكتبة الأهلية، باريس، ٣٥٨٠، ورقة ٩٥ و ـ ٩٦ و؛ مؤلف مجهول، «نزهة الأدباء»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١٣٥٧، ورقة ٩٧ و ـ ١٠٤ ظ، والفصل طويل ومهم؛ محمد بن عبدالله الهندي، «مبهج النفوس»، مخطوطة كمبريدج، ١٩١ ـ Qq، ورقة ٨٩ و ـ ٩١ و: الحفناوي البساري، «بغية الجليس»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٤٨، ورقة ٦٩ ظ ـ ٧١ و؛ الخزرجي، «القمر الطالع»، مخطوطة كمبريدج، ٢٠٩ ـ Qq، ورقة ١٥٩ ظ ـ ١٦٣ و؛ محمد بن عاصم القيسي الغرناطي، «حدائق الأزهار [الأزاهر]»، =

المقارنة بين القطع الهزلية الخاصة بهم في الأدب المهذب وبين ما ينسب إليهم في النتاج الأدبي فيما وراء الرسمي والمقبول، فلو نظرنا مثلاً إلى احدى هذه الشخصيات، في كتاب شعبي لم ينشر بعد، ويمتاز بالجرأة والصراحة من ناحية التعابير(٣٧)، لاتضح لنا البون

= مخطوطة القاهرة، دار الكتب، ١٨٣٣ ـ أدب ورقة ٤٥ ظ؛ مؤلف مجهول، «رياض الأفكار»، مخطوطة نفس المكتبة، ٤٦٩٩ ـ أدب، ورقة ٢٠١ ظ؛ مؤلف مجهول، «مضحك العبوس»، مخطوطة نفس المكتبة، ٥١٠٢ ـ أدب، ص ٣٨ ـ ٤٠؛ مؤلف مجهول، «الروض الناضر»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٨١، ورقة ١٥٠ و. وهكذا وصلنا إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر (!). وانظر كذلك المصادر في الملاحظة التالية. أما شخصية جحا الموصوفة بعكس ذلك (!)، أي الشاب الناجح في الحب والجنس، والذي لم يترك امرأة واحدة في حارته إلا وتقرب إليها من هاتين الناحيتين، فانظر المخطوطتين المذكورتين في الملاحظة التالية، وانظر كذلك الملاحظة ١٩ أعلاه.

(٣٧) مؤلف مجهول، «حكايات عن جحا هزلية»، مخطوطة مانشستر، John Rylands رقم (٢٠٤) ٦٥٧، ورقات ٨٦ و ـ ١٠٠ ظ. وقد أهمل الباحثون هذه المجموعة وهي من القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي. ومن أراد أن يقارن هذا الكتاب مع كتاب باللغة الفصحى من نفس القرن عليه أن يفتح «إرشاد من نحا إلى نوادر جحا» للميلوي، مخطوطة جامعة يل، Landberg ـ ٢٥٨، ورقات ٩٧ و ـ ١٣٠ و، ومخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٦٦٤٦، ورقات ٦ ظ ـ ١٦ و، حيث تنسب الرسالة للسيوطي. وانظر مثلاً عند المؤلف المجهول المذكور أعلاه، ٨٦ ظ ـ ٨٨ و؛ ونفس الحكاية موجودة في مجموعة قصص شبه شعبية، لمؤلف مجهول، بدون عنوان، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٦٥٠، ورقات ١٤٦ و ـ ١٤٨ و. ويستمر الجمع والتأليف لنوادر جحا في عصرنا هذا، وانظر مثلاً ـ El - Hajj L. Gulliver, *Fifty and one Jests of Joha*, Beirut, n.d. فلا عجب أن هذا النوع من المجاميع قد ينقص في البيبليوغرافيات.

الشاسع بين بيئته وبيئة الأدب المقبول.

رابعاً ـ مسأة التوازن بين التافه والرزين في ثلاثة مستويات:

لقد لجأ الأدباء القدماء إلى استعمال مصطلحي «الجد والهزل» وتحدثوا عن تناوبهما في الأدب، وعندما نتعمّق في قضية تناوب الرزانة والخشونة يتعدى تحليلنا لهذا الإطار القديم ويسمح لنا بأن نقف على تركيب المواد الفجّة من جهة، والمواد الرفيعة اللطيفة من جهة أخرى، حتى في نطاق «الهزل».

ومن شاء أن يمعن النظر في ظاهرة الهزل العربي فلا بد له من التعمّق في الإطار الأشمل: مجموعات الأدب التي تحتوي على فنون أدبية وأصناف من المعارف والعلوم. فثمة توازن في تلك الوفرة المدهشة؛ فإذا وردت معلومات نظرية علمية ومواد جدية في نصّ ما، فسرعان ما تعقبها المواد الخفيفة مثل بعض الفقرات والكلمات «الشاذة» ليتم بذلك التوازن. فهذا التوازن كان يتجاوب مع الذوق الأدبي والحاسّة «الجمالية»[٣٨].

ويتجلى هذا التوازن في مستويين آخرين، أحدهما في إطار الفصل؛ فالمؤلف قد يورد في الفصل ذاته مزاحاً على حساب العميان، مثلاً، إلى جانب المدافعة عنهم[٣٩]. والثاني في إطار أضيق قد ينحصر ضمن أصغر «وحدة» أسلوبية، أي ضمن جملة أو جمل في النص الهزلي نفسه، كما وقد أثبتنا في بحث سابق عن نوع معيّن من النثر[٤٠]:

---

(٣٨) انظر أدناه، في نهاية الفصل الأول: ٥.

(٣٩) انظر أعلاه، ملاحظة ٢٠.

(٤٠) انظر مقالتنا المذكورة أعلاه، «Kings and Craftsmen» وهي تحت الطبع =

المواد الأدبية الراقية

↕ ↕ ↕ التلاعب بين المستويين ↔ النتيجة الأدبية النهائية

المواد الأدبية الفجّة (الشعبية مثلاً)

إذن فحقيقة المزج بين الرزانة والتفاهة تكمن حتى في عناصر الجملة نفسها في بعض أشكال النثر الفني الهازل.

فكلما ارتفعت الكتابة إلى الصيغة الجدية الجميلة اضطر المؤلف إلى الإبتعاد عنها فوراً وإلى الأخذ من المواد الخشنة بنفس المقدار، وبالعكس، كلما «انخفضت» الكتابة لجأ حالاً إلى «رفعها»، وهكذا، كلما تزايد «الإنخفاض» تزايد «الرفع».

وسنحاول هنا صياغة عدة قواعد توضح تعدّد العناصر الهزلية وكثرتها في أدب القرون الوسطى وكيفية ظهور هذه العناصر فيه. وقد يميل مبنى هذا الأدب إلى شيء من «اختلال التوازن»، هذا إذا ما حكمنا عليه بالاستناد إلى مفاهيم اليوم، لأن الأدب يبالغ في التطرق إلى الناحية الثقافية النظرية، على شكل معلومات واستطردات[٤١]. وبالذات، فإنه بسبب هذه المبالغة في المواد

= في *Studia Islamica* حيث يرد هذا الرسم التوضيحي مشروحاً بشكل أوسع. أما السهام وشرح «ارتفاعها» و «انخفاضها» فانظر الصفحة التالية.

(٤١) انظر، مثلاً، جميل جبر «الجاحظ في حياته وأدبه وفكره»، بيروت، ١٩٥٩، ص ١٥٠، وهو يعتبر استطرادات الجاحظ عيباً، مع أن أسلوبه هذا، حسب رأينا، هو بالذات، من عوامل الإبداع في تفكيره ومن أسباب أصالته لأن «محاوراته» هذه تعكس الأدب الشفهي وأسلوب مجالسه وهي تيار معين من تيارات الأدب. وانظر شارل بلا، «أصالة الجاحظ»، الدار البيضاء، ٢ ـ ١٩٦١، ص ٢١ ـ ٢٢.

الجدية يلجأ بعض الكتّاب إلى إيراد الموادّ الهزلية الفجة التي يتعجب منها قارئ اليوم، لأنّ الميل المتطرف إلى جهة واحدة هو الذي يؤدي إلى المبالغة في التطرف إلى الجهة الأخرى، ولو للحظات، لكي يحصل التوازن.

ويتجلى هذا التوازن فعلاً في المجموعات «اللامنهجية»، ونطلق هذه العبارة هنا، على نوع المجاميع والموسوعات الأدبية التي لم تصنّف حسب فصول وأبواب مرتبة على طريقة ابن قتيبة وابن عبد ربه(٤٢) وأتباعهما في التنسيق والتبويب. فالمجموعات «اللامنهجية» هي طريقة الجاحظ وأبي حيان التوحيدي(٤٣) والحصري القيرواني ومن حذا حذوهم. ولعل الفرق بين هذين النوعين من المجموعات الأدبية يتمثل في تبويب النوع الأول حسب وحدات «صنفية»، كل موضوع في بابه، في حين أن مؤلفي النوع الثاني يرتكزون في مجموعاتهم على قطع غير منسقة الترتيب، تبدو وكأنها فوضى(٤٤). بيد أن كنه مبنى هذه المجاميع كما يدركه القارئ اللبيب، هو الترتيب حسب «حصص» متعددة المواضيع اختيرت ونسّقت وفقاً للذوق الأدبي الفني أو وفقاً لتسلسل الأفكار وتداعي الخواطر، وهما في

---

(٤٢) «عيون الأخبار» و «العقد الفريد»، في الطبعتين المذكورتين. وتوجد فصول الهزل في هذين الكتابين في القسم الأخير. ومن الجدير بالذكر أن ابن حمدون الذي نشير إلى مجموعته في ملاحظاتنا رتّب فصول مجموعته الأدبية حسب مواضيع. . . ومع ذلك لم يورد المواد الهزلية في قسم منفرد وإنما اتبع كل باب من أبواب كتابه بفصل خاص عن «نوادر» هذا الباب. . .

(٤٣) نعني كتابه «البصائر والذخائر» أكثر من كتابه «الإمتاع والمؤانسة» الذي رتّبه المؤلف على شكل ليالٍ، أي مجالس من المحادثات الليلية.

(٤٤) انظر أعلاه، ملاحظة ٤١ في الصفحة السابقة.

طبيعتهما عاملان يعكسان، عند بعض الكتاب، أصالة التفكير والابتكار.

وقد يطمح المثقف المتذوق للأدب إلى رؤية الهزل متوازناً مع الجد على امتداد كل المجاميع، ولكنه سرعان ما يلقى نفسه في مأزق: لا شك أن المزاح يتوازن مع المواد الجدية الصبغة في بطون المجموعات «اللامنهجية» بفضل تداخل المواد بعضها ببعض، ولكن، هل من سبيل إلى إثبات نظرية التوازن في بعض المجموعات المبوّبة المنسقة حيث تأتي المواد الهزلية كل على حدة، مثلاً في نهاية الكتاب؟

فشأن هذه المواد شأن الفصول التي تتناول نوادر البخلاء والثقلاء والمجانين والحمقى وذوي العاهات والسراق والضراطين والطفيليين والأعراب والمعلمين والمغنين والقحاب والقضاة واللصوص والمتنبئين والنحاة وغيرهم(٤٥). وليست كل هذه

---

(٤٥) وانظر ما يرد عن مواضيع خاصة مثل الثقلاء، أدناه ابتداء بالفصل الثالث: ٢، والأكلة، أدناه، ملاحظة ١٠٦، وكذلك الضراطين، أدناه، ملاحظة ٥٤. أما المواضيع والصفات التي كرست لها كتب خاصة فنذكر منها مثلاً «البخلاء» للجاحظ، الطبعة المذكورة؛ والخطيب البغدادي الذي تبعه في تأليف «كتاب البخلاء»، بغداد، ١٩٦٤، وفي تأليف «كتاب التطفيل والطفيليين»، النجف، ١٩٦٦؛ وقد ضاعت الرسالة التي ألفها الجاحظ في التطفيل؛ وهناك مخطوطات، لم تنشر بعد، موضوعها البخل، مثل علاء الدين الدمشقي القادري، «محاسن الآثار في ذم الشحّ والبخل»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٩٤، ورقات ١٦٢ ـ ١٩٣؛ وقد قيل لنا أنه سينشر قريباً: المناوي، «الدر المنضود في ذمّ البخل ومدح الجود»، دار الكتب في القاهرة، ٣٥٦ ـ أدب؛ وكذلك موضوع الحمقى والمجانين كابن الجوزي، «كتاب الحمقى والمغفلين» الطبعة المذكورة؛ النيسابوري، «عقلاء =

... ...

= المجانين»، النجف ١٩٦٨ وغير هذه المصادر الخاصّة بموضوع واحد. أما النوادر في مجاميع الأدب العربي فنكتفي بالنماذج التالية: ابن قتيبة، المصدر المذكور، ج ٣، من ص ٢٢٤: الأكلة، من ص ٣٣٣ البخلاء، على سبيل المثال؛ ابن عبد ربّه، المصدر المذكور، ج ٦، ص ١٤٨ ـ ٢١٧: الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين، على سبيل المثال؛ القالي، «ذيل الأمالي»، بيروت، ١٩٢٦، ص ١٧: عن الطفيليين؛ الأبي، «نثر الدرّ»، مخطوطة أكسفورد، ٢٢٥ ـ Pococke، مواضيع مثل الأعراب من ورقة ٣ ظ، والضراط والفساء، من ورقة ١٨٢ والخ؛ ومختصر «نثر الدر» المسمّى «نظم الدرّ»، نفس المكتبة والمجموعة، ٣٥٥، ورقة ١٦ ظ: نوادر القضاة، ١٧ و: نوادر القحاب، ٤٢ و، وخاصة ١١٧ و: الأعراب، ١٦٨ ظ: اللصوص، ١٦٩ ظ: الحمقى والمغفلون؛ ومخطوطة «نثر الدرّ» في دار الكتب القاهرة، ٣٢٦ ـ أدب: ورقة ٤٤ ظ: نوادر المتنبئين، ٤٩ و: طفيليون وأكلة، ورقم ٣٢٧ ـ أدب: ٦٠ و: مجانين، ٦٥ و: بخلاء، ٧١ و: شطار، ١٥٧ و: قضاة، مؤلف مجهول، «رقائق الحلل في دقائق الحيل»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٤٨، حسب قائمة المواضيع كما يوردها المؤلف: حيل اللصوص وحيل العيارين، وحيل الطفيليين الخ ولكن الجزء الثاني من الكتاب قد ضاع وانظر R. Khawam, *Le livre des ruses*, Paris, 1976, p. 33؛ الراغب الأصفهاني، المصدر المذكور، ج٢، ص ٥٩٥: بخلاء، ص ٦٢٩: أكلة وطفيليون، ج٣، ص ١٨٩ ـ ١٩٤: سراق ولصوص، على سبيل المثال؛ ابن حمدون، «التذكرة»، مخطوطة راغب باشا، ٤ ـ ١٠٨٢، من ورقة ٣١ ظ: نوادر عن الطفيليون والمتنبئين والمجانين آلخ، ١١٣ ظ: الأعراب، ثم السراق، ومخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٥٧٦٩، ورقة ٤٨ و: نوادر المجانين، ٥٨ و: البخلاء، ٧٠ ظ: الشطار، ومخطوطة القاهرة، دار الكتب، ١٥١٤ ـ أدب: ورقة ١٥٠ و: أعراب، ١٨٩ ظ: نوادر المتنبئين، ١٩٠ ظ: نوادر المجانين؛ ابن الجوزي «الأذكياء»، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٨٨، ١٩٤، ٢١٤: الفصول ٢٧، ٢٨، ٣٠، عن المتطفلين والمتلصصين والمجانين؛ الوطواط، «غرر الخصائص»، بولاق ١٢٨٤، من ص ٢٨١، =

... ...

= الفصل العاشر: بخلاء؛ النويري، المصدر المذكور، ج٣، ص ٣٢٣: طفيليون، ٣٤٣: أكلة؛ محمد بن عاصم القيسي الغرناطي، «حدائق الأزهار [الأزاهر]» مخطوطة القاهرة، دار الكتب، ١٨٣٣ ـ أدب، ورقة ٨١ ظ: نوادر المتنبئين، ٨٣ ظ: مغفلون ومجانين؛ مؤلف مجهول، «حلية الأدب»، مخطوطة كمبريدج ٤٧ ـ Qq، ورقة ٩٦ ظ: أكلة، ١٥٠ ظ: طفيليون؛ ابن الشجري، «ترويح الأرواح»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٢٧، ورقة ٦ و: لصوص، ٦ ظ: بخلاء وطفيليون؛ الأبشيهي، المصدر المذكور، ج١، ص ١٨٠: أكلة، ٢١١: سراق، ج ٢، من ص ٢٦٥: الخ؛ الحجازي الخزرجي، «روض الآداب»، مخطوطة المتحف البريطاني، ٤٨٩، ١٩ ـ Add، ورقة ١٩٦ ظ ـ ٢٠١ ز: طفيليون وأكلة، ومخطوطة دار الكتب، القاهرة، ١٤٣٧ ـ أدب، ورقة ٢٨٨ و: بخلاء، ٢٨٩ ظ: طفيليون وأكلة، مؤلف مجهول، «المختار من نوادر الأخبار»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٩١، ورقة ١٥٨ و: بخلاء، ١٦٥ و: طفيليون، السيوطي، «تحفة المجالس»، القاهرة، ١٩٠٨، ص ١٧١: قضاة، ٢٣٨: طفيليون، ٢٤٢، متلصصون؛ الستيوي، «زبد الأدباء»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٨٠، ابتداء بورقة ٤٤ و: معلمون، نحاة، قضاة، مجانين، بخلاء، طفيليون، لصوص، متنبئون آلخ؛ محمد بن عبدالله الهندي، «مبهج النفوس»، مخطوطة كمبريدج، ١٩١ ـ Qq، ورقة ٩ و: قضاة، ١٢ ظ: نحاة، ٢٢ و: متنبئون، ٥٣ و: «الشرطية»، ٧٥ ظ: بخلاء، ٧٨ و: أعراب، ٩٤ ظ: مغفلون، ٩٥ و: لصوص؛ وكتاب آخر يشبهه من ناحية ما، لمؤلف مجهول، «مضحك العبوس»، مخطوطة القاهرة، دار الكتب، ٥١٠٢ ـ أدب: ١٥: مغفلون ومجانين، ٤٠: قضاة، ٥١: معلمون، ٥٧: نوادر المتنبئين، ٦٢: نحاة، ٧٤: أطباء، ١٢٥: بخلاء؛ ابن المطهر الحنفي، «أنس الوحيد»، مخطوطة فاتح، ٣٦٨٣، من ورقة ١٣٠ و: معلمون؛ مؤلف مجهول، «نزهة المسامر»، مخطوطة كمبريدج، (١) ١٨٢ Qq، ورقة ٩٢ ظ: طفيليون؛ مؤلف مجهول، «منتخب المختار»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٣٢٥، من ورقة ١٥٢ ظ: طفيليون؛ الحفناوي البساري، =

الأخلاق والصفات والمهن الخ إلا غيضاً من الفيض الذي تحفل به كتب الأدب. فمجرد ترتيب هذه الكلمات هنا ترتيباً أبجدياً وفق حروف الأصل فيها قد خلط بعضها ببعض: أخلاق تعود إلى التصرفات الإنسانية إلى جانب أخلاق تميل إلى المميزات الجسمانية، ومناصب دينية ثقافية رفيعة كالقضاء، يفتخر بها أصحابها، إلى جانب صفات المجرمين والمحتقرين، ومزايا تراثية عريقة كالبداوة إلى جانب أنواع من الشذوذ النفسي، ومن هنا نستنتج أن تنوع الصفات قد يعتمد، هو الآخر، على بعض التوازن، كما نستنتج أن نوادر الثقلاء التي ستحتل حيزاً كبيراً في سياق بحثنا ليست إلا عنصراً واحداً ضمن سلسلة فيها تنوع وتضارب بين أخلاق ومزايا وصفات مختلفة، وفي الوقت نفسه تبقى متناسقة موحدة في هدفها الأدبي.

= «بغية الجليس»، نفس المكتبة والقسم، ٣٤٤٨، ورقة ٣ و: قضاة، ١١ و: نحاة، ١٧ ظ: أعراب، ٤٢ ظ: طفيليون، ٤٦ ظ: لصوص وشطار، ١٠٣ ظ: مجانين؛ مؤلف مجهول، «نزهة الأدباء»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١٣٥٧، من ورقة ٣ و: علماء وفقهاء، ١٢ و: نحاة، ١٧ ظ: متنبئون، ٢٥ ظ: أعراب، ٣٥ ظ: لصوص، ٦٢ و: طفيليون، ومخطوطة كمبريدج، نفس الكتاب، القسم الشرقي ١٢٥٦: ورقة ١٦٨ ظ: معلمون، ١٦٧ و: أطباء، ١٧٨ و: أعراب، ١٨٢ و: لصوص، ١٩٥ ظ: بخلاء. وهكذا وصلنا إلى مجموعات أدبية كتبت في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر، قبيل ظهور الأدب العربي الحديث؛ وأثبتنا بذلك أن هذا التراث الأدبي لم ينقطع إلى يومنا هذا. وراجع كذلك الحوفي، الدراسة المذكورة، ص ١٥٢ ـ ١٦٨: قضاة ووعاظ، ١٦٩ ـ ١٩٢: معلمون، ومتنبئون، ١٩٣ ـ ٢٠٥: بخلاء، ٢٠٦ ـ ٢١٦: طفيليون؛ العطري، الدراسة المذكورة، من ص ٢٠٣: طفيليون، ٢٢٠: حمقى ومغفلون...

فهذه «النوادر» التي تعني في اللغة العربية ما يندر ويقل ويجذب بذلك قلوب السامعين والقراء ويشنف أسماعهم، لا تتعدى في بعض الأحيان كونها مجرد أخبار، منها ما صيغ صياغة جدية، كبعض نوادر الأعراب، ومنها ما صيغ صياغة هزلية. بيد أن طابع المزاح هو الذي يغلب على هذه الملح والنوادر التي يمتزج فيها الجد بالهزل. والمشكلة الأهم هي، بلا ريب، مشكلة انفصال المواد الهزلية عن العناصر الجدية ضمن المجاميع المبوّبة المنسّقة ومسألة انسجامها في نظرية التوازن المذكورة. وليس حلّ هذه المشكلة بالأمر المعقد البعيد عن الإدراك: إن قراء المجموعات في القرون الوسطى لم يلجأوا عادة إلى التبحر في كل واحد من المواضيع استخلاصاً واستقصاءً وإنما مزجوها بعضها ببعض عند التطرق إليها في محادثتهم، أي ضمن «محاضرات الأدباء»[٤٦]، وهي إحدى التسميات التي تعارف عليها المثقفون والتي أطلقت على مجالس الأدب أي الأدب الشفهي. ولم تكن هذه المجالس إلا انعكاساً للأدب المكتوب، بغض النظر عن مبناه المبوّب، ذلك أن كثرة الخوض في باب واحد من الأبواب قد تولد الملل وتثير التثاؤب والضجر في تلك المجالس، وذلك ما وقع مثلاً للخليفة الواثق وغيره[٤٧].

---

(٤٦) نعني المفهوم «محاضرات الأدباء»، أي المجالس التي يتناول الحاضرون فيها مواضيع الأدب والثقافة ولا نعني هنا خصوصاً كتاب الراغب الأصفهاني المذكور والذي يحمل هذا العنوان.

(٤٧) المسعودي، «مروج الذهب»، القاهرة، ٥ ـ ١٩٦٤، ج ٤، ص ٨٣: «فلما كثر هذا الواثق فقطع ذلك...». وانظر النواجي «المصدر المذكور، ص ٣٠: «ولا تجعلوا مجلسكم حديثاً كله ولا غناء كله ولا هزلاً كله ولا =

إذن، فكل هذه المجاميع بنوعيها، «اللامنهجي» و«المرتب»، تصبو إلى إفادة محافل المثقفين وحلقات التعلم والتعليم ومجالس الأدب الشفهي التي هي في كلتا الحالتين أبعد ما تكون عن الترتيب والتنسيق طالما انسجمت فيها الفائدة مع التسلية ولاءمتها.

(حذفنا هنا رسماً بيانياً، اشتملت عليه طبعة ١٩٨٣، يشرح أساليب «خلط الجد بالهزل» على مستويات شتى. منها مستوى الكتاب، ومستوى الفصل والفقرة، وفي حالات نادرة، نسبياً، الخلط في مستوى الجملة، حيث يتمّ تركيب االعنصر الهزلي بواسطة امتزاج الأضداد: الفظّ بالراقي والشعبي بالأدبي إلخ؛ انظر: *Studia Islamica*, LXII [1985] [١٩٨٥] ، ص ١٠٢-١٠٥).

خلاصة: وهكذا فإننا نصل إلى الاستنتاج التالي: ليس كل ما يبدو اليوم شاذاً من الناحية الأدبية الجمالية يخالف بالضرورة العرف والذوق المهذب في نظر القراء القدماء، كما يتضح لمن يطالع بعض آثار الأدب العربي الأصيل مطالعة دقيقة. فيجب على قارئ الأدب أن يبتعد عن اللجوء إلى مقاييس وأحكام لا تتلاءم وتلك الحقبة من الزمن (anachronism). فنوادر الثقلاء التي ستحتل حيزاً كبيراً في بحثنا هذا ليست إلا محكاً صادقاً لامتزاج «الفطري» بالمهذب المتطور، ضمن النتاج الأدبي العربي، لأنها تنجم عن أبسط وسائل

= جداً كله، ولكن تارة وتارة». والخليفة المعتمد مثلاً، كانت له إشارة معلومة يعرفها كل الجلساء وذلك بأن يرفع رجله على سريره ليتغرق عنه جلساؤه ويتركوه، راجع التنوخي، «الفرج بعد الشدة»، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٦٦. وانظر كذلك ما يشبه هذه التصرفات، عند النواجي، المصدر المذكور، ص ٢٨؛ المقريزي «الخطط»، القاهرة، ١٢٧٠ هـ، ج ١، ص ٣١٧.

الهزل وأخفضها في أساسها وانطلاقها، وترتقي إلى أرفع درجات التطور الفني. كذلك على القارئ أن يحاول جاهداً التماس التوازن ضمن الإطار الأدبي، على اختلاف مستوياته، ولكي يتمتع القارئ بالنتاج الأدبي الهزلي عليه أن يتخيل أنه يعيش في البيئة الاجتماعية الخاصة بتلك العصور وكأنه ينتحل آراءها ويستمرئ أذواقها ويزن بميزانها..

الفصل الثاني

الضحك والمضحكون
وبيئتهم الاجتماعية والأخلاقية

١. بين التلقائية والصنعة

قد يعكس المزاح والهزل اللذان يمتاز بهما كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية المشاكل التي يقاسيها ذلك المجتمع، إذ أن الهزل ليس إلا وسيلة للترويح عن أفراد المجتمع مما يكايدونه.

ولهذا السبب بالذات فإن «الظرفاء» والمثقفين من مستهلكي الأدب العربي، وغالباً ما كانوا من الأثرياء في القرون الوسطى، قد لجأوا إلى شتى أساليب المزاح والمداعبة لمواجهة بعض مشاكلهم.

(حذفنا هنا رسماً بيانياً، اشتملت عليه طبعة ١٩٨٣، يشرح التناقض بين الضجر الذي يسود البلاط، في بعض الأحيان، ومعاناة «آداب السلوك» الصعبة، من جهة، والتندر الناجم عن البيئة الشعبية الذي يضحك االطبقة العليا، من الجهة الأخرى).

كان الشعور بالضجر والسأم الذي خيّم على الطبقة العليا في قصور خلفاء بني العباس وبيوت أثرياء دولتهم من العوامل التي دفعت هذه الطبقة إلى البحث عن وسائل التسلية واللهو. وقد ظهرت القيود الشديدة التي فرضتها آداب السلوك على حياة هذه الطبقة إبان الدولة الأموية[٤٨]، ثم استحكمت سيطرتها منذ بداية الدولة العباسية

---

(٤٨) انـظـر: O. Grabar, «Notes sur les cérémonies umayyades». *Studies in Memory of G. Wiet*, Jerusalem, 1977, pp. 51 - 60.

لكثرة انتشار العادات الفارسية الأصل(٤٩). وقد أرغمت آداب السلوك هذه أهل القصور على ممارسة شتى طرق الترويح والترفيه بغية التخفيف عن أعبائهم، أو على حد قول النصوص القديمة: «طرح التكلف»، أي إزالة الحواجز والقيود الرسمية التي تفصل بين الحاضرين في مجالس الأنس(٥٠). وستتضح لنا أهمية هذه التفاصيل عند تحليل نوادر الثقلاء في سياق دراستنا.

لقد انتقلت بعض وسائل التسلية، كالصيد وحفلات الشراب، إلى الدولة العباسية، من تراث قديم عربي وأعجمي، حتى أصبحت وسائل التسلية هذه رمزاً للسؤدد، كما ينعكس ذلك في الأدب والفن التشكيلي، من رسم ونقش وغيرهما. فقد اعتُبر الصيد وتناول الكأس، لا سيما في وضع (pose) فني خاص، دليلاً على أن الشخص المرسوم أو الموصوف ملك أو أمير(٥١).

---

(٤٩) لقد مال M. Canard إلى إبراز المشترك بين آداب السلوك البيزنطية والإسلامية: M. Canard, «Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin», *Byzantion*, XXI, 1951, pp. 366 - 377.

ولكن الأسس الفارسية أرجح بالنسبة للبلاط العباسي، وراجع:

D. Sourdel, «Questions de cérémonial abbaside», *R.E.I.*, XXVIII, 1960, pp. 121 - 148.

(٥٠) ابن المعتز، «فصول التماثيل»، القاهرة، ١٩٢٥، ص ٧١: ترك التحفظ؛ الراغب الأصفهاني، «محاضرات الادباء»، الطبعة المذكورة، ج ٢، ص ٦٩٤: طرح الحشمة؛ النواجي، المصدر المذكور، ص ٢٦: اطّراح التكلف، ترك التحفظ؛ وكل ذلك يجري عادة في «مجالس النظراء» أيّ المجالس التي تتساوى فيها مرتبة الملهي النديم ومراتب سائر الحاضرين، ويجري ذلك أحياناً في «مجالس الرؤساء والعظماء» حيث لا تتساوى تلك المراتب...

(٥١) انظر ضمن مقالتنا ـ «Vin fait de civilisation» (في المجموعة لذكرى =

وتدخل في هذا الباب وظيفة المضحك الذي ورثته الحضارة العربية الإسلامية عن الحضارات التي سبقتها[٥٢] أو بعثته بمظهر جديد[٥٣]. فمنذ ظهوره في هذه الحضارة بذل المضحك وسعه للترويح عن الأمراء والوزراء وإزالة ما فرض عليهم من قيود آداب السلوك، حتى ولو كان هذا الترويح للحظات. وتكفي نظرة خاطفة في ميزانية البلاط لتطلعنا على مدى أهمية دور الملهين من

= Wiet ـ المذكورة)؛ ص ١٣٧ ـ ١٣٩، حيث تتضح العلاقة بين هذه الرموز الفنية المرسومة والمنقوشة في شتى المواد وبين الرموز الخاصة بأدب الطبقة العليا نظماً ونثراً.

(٥٢) «كتاب التاج» المنسوب للجاحظ، القاهرة، ١٩١٤، ص ٢٤، ٢٦؛ المسعودي، المصدر المذكور، ج ١، ص ٢٤٤؛ الرقيق القيرواني، «قطب السرور»، مخطوطة المكتبة الأهلية، باريس، القسم العربي، ٣٣٠٢، ورقة ٨٢ و: «المضحكون وأهل المجون»، ورقة ٨٢ ظ: «الملك يحتاج إلى الناسك لعظته، ويحتاج إلى أهل اللعب والهزل...»، ولا يرد ذلك في طبعة دمشق، ١٩٦٩، لأنها تعتمد على مخطوطة لندن فحسب. وانظر كذلك A. Christensen, *L'empire des Sassanides*, Copenhagen, 1907, p. 97، وانظر كذلك، لنفس المؤلف *L'Iran sous les Sassanides*, Copenhagen, 1944, p. 402.

ويقترح كريستنسن أن نفهم من خلال كلمة مضحك في بعض النصوص مدلولاً أعم: ملهياً. ولكن انظر أدناه، الملاحظتين ٥٤ ـ ٥٥ اللتين توضحان معنى الكلمة في الحضارة العربية الإسلامية.

(٥٣) مثل الحكايات عن أشعب في بلاط الوليد بن يزيد الأموي، حقيقة كانت أم لا، والتي يلعب فيها أشعب دور المضحك مع أن «وظيفته» ليست بوظيفة، أي ليست مقررة رسمية، وانظر ـ F. Rosenthal، البحث المذكور، ص ٢٢، ملاحظة ١، ٨٨ ـ ٩٠، ١٠٦ ـ ١٠٧[خصوصاً]، ١١٢. ويشبه ذلك «وظيفة» علي بن الجنيد الذي هو مدار البحث في الفصل الحالي وكيفية تولدها...

«الضراطين»، و«الصفاعنة»(٥٤) مثلاً، كذلك دور «المضحكين»، وترد بعض أسمائهم كالقاسم بن زرزور ووارد، وكذلك «الملهين» و«الجلساء»(٥٥).

(٥٤) ميزانية قصر الخليفة المتوكل، المتوفى عام ٢٤٧ هـ، ٨٦١ م، في كتاب القاضي ابن الزبير «الذخائر والتحف»، الكويت، ١٩٥٩، ص ٢٢٠، أما الضراطون المذكورون في هذه الميزانية فانظر كذلك أدناه، المسعودي، والشيزري، والراغب الأصفهاني في الملاحظات ٥٨، ٦٧، ٦٨، وكذلك كتاب الميداني عن «الضراطين» والذي ضاع [وانظر R. Rosenthal، البحث المذكور، ص ٦، ملاحظة ٣]، ابن النديم، «الفهرست»، القاهرة، ١٣٤٨ هـ، ص ٢١٦؛ وفصل آخر عند الراغب الأصفهاني، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٩؛ ابن حمدون، التذكرة، مخطوطة دار الكتب، ١٥١٤، أدب، ج ١١، ورقة ١٦٠، ١٧٨؛ ويصف المؤلف أحمد ابن مباركشاه، «السفينة»، مخطوطة فيض الله أفندي، ١٦١٩، ورقة ٧١ ظ، كيف جلب «أمير الضراطين» إلى قصر المأمون ليسليه، وانظر كذلك ابتداء بورقة ١١٩ ظ ومن نفس المخطوطة. وانظر كذلك الأبي «نثر الدر» مخطوطة اكسفورد، ٢٢٥ ـ Pccocke، من ورقة ١٨٢ و: الضُراط والفُساء؛ «روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار»، للزمخشري، الطبعة المذكورة، من ص ٢١٢: الضحك والضراط والهزل؛ وهنا نرى أن هذا الموضوع جزء لا يتجزأ من الفصل المهم المكرس للنظرية عن المزاح والنهي عنه والترخيص فيه. أما المسلّون المسمون بالصفاعنة فقد ذكروا كذلك في مصادر أخرى: الحصري، «جمع الجواهر»، الطبعة المذكورة، ص ٢٢٦. ويشرح الراغب الأصفهاني، المصدر المذكور، ج٢، ص ٦٦٩ ـ ٧٠٠، ماهية الصفاعنة؛ وكذلك التيفاشي، المخطوطة المذكورة، ورقة ٦ و؛ والصفاعنة يضربون ويصفعون ويتصافعون أمام الخليفة والملك. أما F. Rosenthal الذي يترجم صفاعنة: slapstick artists فيتقرب من المعنى الصحيح في اشتقاق الكلمة الإنكليزية وأصلها، لا في مدلولها المعاصر في المسرحيات الهزلية مثل قطع من «الفودفيل» أو في الأفلام حيث يعني المصطلح الإنكليزي اليوم أنواعاً شتى من الإضحاك المبتذل الرخيص... وانظر كذلك أدناه، ملاحظة ٥٦.

(٥٥) ميزانية سنة ٣٠٦ هـ، ٩١٨، ٩١٩ م، عند الصابيء، «تحفة الأمراء في =

فكل ما يشذّ عن البيئة السائدة في تلك القصور، وكل ما يجري في الأسواق والشوارع، حريّ بأن يبعث المرح والسرور في قلوب أهل تلك الطبقة(٥٦). وهكذا تتسلل المواد «الأدبية» الصادرة عن البيئة الشعبية إلى حياة المثقفين والطبقات العليا وتنتشر في أحاديث أهل الأدب الشفوي والمكتوب حيث تتبلور وتصاغ من جديد حتى تصبح أدباً وتشكل فيه فرعاً من فروع «النوادر»(٥٧).

= تاريخ الوزراء»، ليدن وبيروت، ١٩٠٤، ص ١٥، ١٨ ـ ١٩: مخرفون، مضحكون، الخ. وانظر ـ A. Von Kremer, *Über das Einnahmbudget*, Wien, 1884, pp. 67, 69.

(٥٦) انظر أعلاه، ملاحظة ٥٤، كيف جلب المأمون إلى قصره من «العامة»، أي المحافل الشعبية، من يضحكه ويسليه بوسائل «شاذة» من ناحية ما. . . وانظر كذلك المسعودي، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٧: «ويحكى أن المأمون أمر بعض خواصه من خدمه أن يخرج فلا يرى أحداً في الطريق إلا أتى به، كائناً من كان، من رفيع أو خسيس، فأتاه برجل من العامة. . .» وانظر كذلك نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٥٢؛ ونرى في الحكاية التي يوردها المسعودي كيف «يتولد» مضحك من المضحكين، اسمه ابن المغازلي، في «البيئة الشعبية» ثم يجلب إلى قصر الخليفة. . . وذلك ما جرى لابن الجنيد الذي نحن بصدد تحليل نوادره هنا. . . وتتردد حكاية ابن المغازلي في بعض مجاميع الأدب الهزلية، مثل: مؤلف مجهول، «درة الزين»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٤٠، من ورقة ٤٠ و. كما أنه يحكى في بعض النوادر أن الملوك والخلفاء كانوا يجلبون إلى قصورهم ملاحين ومجانين وفلاحين، وانظر الحصري، «جمع الجواهر»، الطبعة المذكورة، ص ٢١٦؛ والكرمي، المخطوطة المذكورة، ورقة ٨٨ ظ يورد نفس النادرة. وانظر كذلك الشيزري، «جمهرة الإسلام»، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٢٨٧، ورقة ١١٨ ظ.

(٥٧) انظر، مثلاً، الجاحظ، «الحيوان»، الطبعة المذكورة، ج ٣، ص ٥ ـ ٦، حيث يشير المؤلف إلى ماهية النادرة، وراجع Ch. Pellat المقالتين =

وعلى هذا النحو تتمثل أمامنا إحدى النظريات الهامة التي تتعلق ببعض جذور الأدب المكتوب، وهي أن واقع الحياة هو الذي يتزيّا تدريجياً باللباس الأدبي. وليس هناك فرق كبير في بعض الأحيان بين اللباس الذي يضفيه المؤرخ على نادرة تاريخية وبين اللباس الذي ترتديه النادرة عند الأديب. فربّ مؤرخ ذي ذوق أدبي يصوغ النادرة صياغة أدبية فذة أو ينقلها ممن قد صاغها هذه الصياغة الممتازة.

وتشهد على صحة ذلك حكاية(٥٨) هي في نظرنا من أروع ما نسجه الأدب العربي، إذ أنها تعكس تطوراً اجتماعياً أدبياً جديراً بالاهتمام. وسيتضح لنا عند قراءتها كيف تكوّن طراز جديد من المضحكين وكيف تحوّل من الهواية والتلقائية إلى الاحتراف. وهي قصة خرجت من إطار كتابة التاريخ ووردت في مجاميع الأدب الخالصة، تحكي عن أحد القرويين وقد دعي إلى زيارة قصر الخليفة، وسرعان ما حظي بودّه فدعاه الخليفة إلى زيارات أخرى. ونرى فيما يلي كيف طلب منه بعض أفراد البطانة أن يرافق الخليفة في سفر أو صيد:

«وكان المعتصم يأنس بعلي بن الجنيد الاسكافي، وكان عجيب الصورة عجيب الحديث، فيه سلاسة [وفي بعض المخطوطات:

= المذكورتين [«Seriousness», «Djidd»]، وكذلك انظر أعلاه، ملاحظة ٤٥، التي تحتوي على مواضيع «النوادر»، مثل نوادر القضاة والمعلمين واللصوص الخ. وانظر كذلك أدناه، ملاحظة ٩١.

(٥٨) السمعودي، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٤٨ ـ ٥٠؛ واعتمدنا كذلك في تصحيح النص على تحقيق شارل بلا، الجزء الرابع، بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧. وانظر أدناه، الملاحظتين ٦٧، ٦٨، ص ٤٩، عن مصدرين آخرين يكرران هذه القصة.

سلامة] أهل السواد. فقال المعتصم يوماً لمحمد بن حمّاد: إذهب بالغداة إلى ابن الجنيد فقل له يتهيأ حتى يزاملني، فأتاه فقال: إن أمير المؤمنين يأمرك أن تزامله، فتهيأ لشروط مزاملة الخلفاء ومعادلتهم. فقال علي بن الجنيد: وكيف أتهيأ؟ أأهيئ لي رأساً غير رأسي؟ أأشتري لحية غير لحيتي؟ أأزيد في قامتي؟ أنا متهيئ وفضلة!

قال: لست تدري بعد ما شروط مزاملة الخلفاء ومعادلتهم! قال علي بن الجنيد: وما هي؟ هات ما تدري! قال له ابن حمّاد، وكان أديباً ظريفاً، وكان يرسم الحجاب: شرط المعادلة الامتاع بالحديث والمذاكرة والمناولة، وأن لا تبزق، ولا تسعل، ولا تتنحنح، ولا تمخط، وألاّ تتقدم الرئيس في الركوب إشفاقاً عليه من الميل، وأن تتقدمه في النزول، فمتى لم يفعل المعادل هذا كان والمثقلة الرصاص التي تعدل بها القبة سواء.

وليس له أن ينام وإن نام الرئيس، بل يأخذ نفسه بالتيقظ ومراعاة حال من هو معه وما هو راكبه، لأنهما إذا ناما جميعاً فمال جانب لا يشعر بميله كان في ذلك ما لا خفاء به، وعليّ بن الجنيد ينظر إليه، فلما أكثر عليه في هذا الوصف والشروط قطع عليه كلامه وقال كما يقول أهل السّواد: آه حراه! إذهب له فقل له: ما يزاملك إلا من أمه زانية وهو كشخان. فرجع ابن حماد، فقال للمعتصم ما قال، فضحك المعتصم وقال: جئني به، فجاءه، فقال: يا عليّ، أبعث إليك تزاملني فلا تفعل؟ فقال: إن رسولك هذا الجاهل الأرعن جاءني بشروط حسان الشاشي وخالويه المحاكي فقال: لا تبزق، ولا تفعل كذا، وافعل كذا ـ وجعل يمطط في كلامه، ويفرقع في صاداته ـ ويشير بيديه، ولا تسعل، ولا تعطس، وهذا لا يقوم لي، ولا أقدر

عليه، فإن رضيت أن أزاملك فإن جاءني الفساء فسوت عليك وضرطت، وإذا جاءك أنت فأدّه فافس واضرط، وإلاّ فليس بيني وبينك عمل.

فضحك المعتصم حتى فحص برجليه، وذهب به كل الضحك كل مذهب، وقال: نعم، زاملني على هذه الشريطة، قال نعم وكرامة.

فزامله في قبة على بغل، فسارا ساعة، وتوسّطا البر، فقال علي: يا أمير المؤمنين حضر ذاك المتاع فما ترى؟ قال: ذلك إليك إذا شئتج قال: تحضر ابن حماد، فأمر المعتصم بإحضاره، فقال له علي: تعال حتى أسارّك، فلما دنا منه فسا، وناوله كمه، وقال: أجد دبيب شيء في كمّي فانظر ما هو، فأدخل رأسه، فشم رائحة الكنيف، فقال ما أرى شيئاً، ولكني لم أعلم أن في جوف ثيابك كنيفاً. والمعتصم قد غطى فمه بكمه، وقد ذهب به الضحك كل مذهب. ثم جعل [علي] يفسو فساء متصلاً، ثم قال لابن حماد: قلت لي لا تسعل ولا تبزق ولا تمخط، فلم أفعل ولكني أخرى عليك، قال: فاتصل فساؤه والمعتصم يخرج رأسه من العمارية، ثم قال للمعتصم: قد نضجت القدر، وأريد أخرى، فقال المعتصم ورفع صوته حين كثر ذلك عليه: ويلك! يا غلام الأرض، الساعة أموت».

وتتبع هذه الحكاية قصص أخرى عن ابن الجنيد.

فهل يسع القارئ أن يتصور مناقضة لآداب السلوك المتزمتة وخروجاً على عادات القصر المصطنعة أكبر من التصرف القروي الطبيعي الساذج؟ إن الذي اخترع هذه القصة أو طوّرها من مادة

واقعية تاريخية خام جعل ركيزتها قطبين متضادين: أحدهما شخصية ابن حماد حاجب الخليفة المعتصم الذي أناط به سيده إقناع القروي علي بن جنيد بالمجيء إلى القصر، فبذل ذلك الحاجب مجهوداً لا يكل في تلقين القروي قواعد آداب السلوك الأساسية. وثانيهما شخصية ابن الجنيد، وهو من سكان «سواد» العراق الزراعي، والذي وقف في تصرفاته القروية «الفطرية» هذه موقف التمرد على روح أهل المدن(٥٩)، فقد ثار على عجرفة أهل القصور(٦٠) بمعناها الطبقي

---

(٥٩) انظر أدناه، الفصل الثاني: رقم ٤.

(٦٠) وربما نجم عن هذه الحالة قالب قصصي مشهور في العالم كله (S. Thompson, *Motif - Index*, Copenhagen, 1955 - 8, IV, P. 430) أو، على الأقل، ازداد انتشاراً، ونعثر عليه في القصص العربية التي ينفرد فيها الخليفة أو شخص مشهور آخر، مثل أحد مغني القصر المشهورين، ينفد عن مرافقيه وحاشيته، عن قصد، أو يخرج مع بعض أصحابه وهم متنكرون (incognito) وهكذا يلتقي بأبناء الشعب. ومع أن هارون الرشيد هو الذي اشتهر بهذا القالب القصصي بفضل «ألف ليلة وليلة»؛ فليس من العسير أن نجد في هذه القصص عدداً أكبر من الشخصيات مثل: المهدي وهارون الرشيد والمأمون والمعتصم والمعتمد، والمغنين ابراهيم الموصلي واسحاق الموصلي وابراهيم بن المهدي ومخارق... كما أننا نرى أن بعض المواضيع القصصية (motifs) وقطع منها تنتقل من قصة إلى غيرها ضمن هذا القالب. وانظر مثلاً، عند أبي فرج الأصفهاني «كتاب الأغاني»، بولاق، ١٢٨٥ هـ، ج ٥، ص ٤٣: هارون الرشيد يخرج «متخفياً»، ص ١٢٦: اسحاق الموصلي يخرج، ويحكي «وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة؛ ابن عبد ربه، المصدر المذكور، ج ٦، ص ٤٥٧، ٤٦٧: اسحاق الموصلي ثم اسحاق مع المأمون؛ الخطيب البغدادي، «التطفيل»، الطبعة المذكورة، ص ٤٥؛ ابن الجوزي، «أخبار الظراف والمتماجنين»، الطبعة المذكورة، ص ٥٦، ٨٥؛ الحجازي الخزرجي، «روض الآداب»، مخطوطة القاهرة، دار الكتب، ١٤٣٧ ـ أدب ومن ورقة ٢٩١ ظ؛ النواجي، المصدر المذكور، ص ٥١، =

وعلى «بيروقراطيتهم»[٦١] وخاصة على آداب السلوك التي يتقيدون بها، فهو لم يكتف بازدراء آداب السلوك التي ترى «شرط المعادلة الامتاع بالحديث والمذاكرة والمناولة وأن لا تبزق ولا تسعل ولا تتنحنح ولا تمخط إلخ»[٦٢]. وإنما خرج عليها خروجاً غير متوقع في تلك الفترة[٦٣]. وذلك بأنه كاد يخنق من أحاط به بالروائح

= ٥٣، ٦٨، ٧١؛ الأتليدي، «إعلام الناس»، القاهرة، ١٩٢٦، ص ٦٢، ١٠٨؛ «ألف ليلة وليلة»، كالكوتا، ١٨٣٩، ج ٢، ص ١٤٧، ١٥١. وانظر كذلك مجموعة حكايات شبه شعبية، لمؤلف مجهول، مخطوطة جامعة برينستون، مجموعة يهودا (٤٤١٣) ٢٥١٠، ورقة ٩٠. ومع أن هذه القصص ليست نوادر هزلية فإنها تدلّ على نفس الميل إلى الإبتعاد عن القصر وقيوده والضجر الذي يشوبه، ذلك الميل الذي نجده في مزاح الطبقة العليا.

(٦١) المسعودي، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٥٠ ـ ٥١؛ ولو جرى ذلك في أيامنا لكان بطل القصة «الساذج» يتوجه إلى رئيس احدى المؤسسات أو المنظمات الكبيرة ولوجد أن الوصول إلى رئيسها بحيلة من الحيل أسهل من مخاطبة السكرتيرات اللواتي تحطن به... وفي القرون الوسطى كان الحجّاب مسؤولين عن آداب السلوك. وانظر ما قاله الجاحظ عن العلاقة بين «الحجابة» وتقسيم أهل البلاط إلى «مراتب»، في «رسالة في الحجاب»، ضمن «رسائل الجاحظ»، الطبعة المذكورة، ج ٣، ص ١٤؛ و«العلم بالمراتب» المذكور عنده فارسي الأصل. وراجع: I. Goldziher, *Muhammedanische Studien*, Halle, 1889, I, «A propos de martaba», *R.E.I.*, XLI, 1973, pp. 51 - 69

(٦٢) المسعودي، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٤٩. وقارن مع آداب السلوك المذكورة عند الغزولي، «مطالع البدور»، القاهرة، ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠ هـ، ج ١، ص ١٨٠: «وليحذر من التبسيط والتمديد والتمطي والتثاؤب والتنخع [والمسعودي يذكر: التنحنح] والبصاق...».

(٦٣) وذلك من أيام الفرس الساسانيين وآدابهم و «آئينهم»، وانظر احسان عباس، «عهد أردشير»، بيروت، ١٩٦٤، في نصوص الملاحق، ص ٩٥: «نظافة ثوبه وطيب رائحته»؛ وفي الحضارة الإسلامية: الغزولي، المصدر المذكور، =

الكريهة. . . ولم يتورع عن الجهر «بقاذوراته البدنية»[٦٤]. وبفضل المزايا الاجتماعية الأدبية التي جعلت هذه الأقصوصة ذات صبغة شبه مسرحية مبنية على مستويات لغوية متباينة، عامية ومثقفة نصيحة، بفضل كل هذا ذاعت الحكاية وانتشرت في مجاميع الأدب، كما سنرى.

فشتان ما بين بطلنا هذا الذي كل كلامه وأعماله في قصر المعتصم تتميز بالتلقائية والذي يتصرف بمنتهى الفطرة، وبين المضحكين المحترفين المتخصصين بنفس القاذورات في بلاط المتوكل[٦٥]، الذي اعتلى سدة الطبيعي الفطري. هكذا تطور، في

= ج ١، ص ١٤٠، ١٤٤، ١٨٠؛ النواجي، المصدر المذكور، ص ٢٥ ـ ٢٦. والمصدران يتحدثان عن مزايا النديم والمعاشر للملوك، أي «للرؤساء والعظماء»: «نظافة ثوبه وطيب رائحته»، «نظيف الكفّ، نقي الجبين، عطر البشرة»، «مستعملاً للسواك [وعند الغزولي تحريف: للسنوت] وأخذ السعد بالغدوات»، والسعد نبات يزيل رائحة الفم، كما ورد عند الجاحظ، «التربيع والتدوير»، الطبعة المذكورة، ص ٨٥. وبالفعل فقد ذكرنا السخرية على حساب «الأبخر» وسائر أنواع المنتنين. . . أعلاه، ص ١٧. أما أهمية الطيب والعطور في قصر المعتصم الذي نحن بصدده هنا (والكتاب الخاص الذي صنف له في هذا الموضوع) فانظر مثلاً النويري، المصدر المذكور، ج ١٢، ص ١٠٣. وكل ذلك يدل على أناقة أهل القصور وندمائهم.

(٦٤) المسعودي، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٤٩: الروائح المذكورة. . . وانظر كذلك في نهاية القصة، ص ٥٠: «اعلم أن في ثيابك كنيفاً» وهذه مرحلة تثير الضحك (pointe) من جديد في قصتنا الهزلية هذه. أما معنى بث الروائح هذه في حضرة الملوك فانظر أعلاه، ملاحظة ٥٤ ص ٤١ ـ ٤٢، وقارن مع ما ورد عند مؤلف مجهول، «مضحك العبوس»، مخطوطة القاهرة، دار الكتب، ٥١٠٢ ـ أدب، ورقة ٤.

(٦٥) انظر أعلاه، ملاحظة ٥٤.

بيئة القصور، طراز جديد من المضحكين وتحول من الهواية والتلقائية إلى الاحتراف والتكسب. بيد أنه، مهما كانت العوائق والصعوبات التي يواجهها المضحك المحترف، فإن من مزاياه التنفيس بواسطة إبداء النقد السياسي الأخلاقي بشكل غير مباشر لا يضرّ الرؤساء وحاشيتهم. فتجرؤه هذا على آداب السلوك وقوانين النظافة والعادات المهذبة لا يعتبره المجتمع «الراقي» انتقاداً هدّاماً. فالحضارات الإنسانية التي ترعى حرمة المضحك التلقائي والمضحك المحترف تتحرر بسهولة من عواقب الضغط الهدّام، في حين أن الحضارة التي تمنع وجودهما وتطردهما وتكافح المزاح، قد يطرأ عليها، حسب بعض الآراء، شيء من الضغط والاختلال الأخلاقي[٦٦]. ومن الجدير بالتنويه أنه قد انضم إلى العوامل، التي تشهد على اتّسام أقصوصتنا الهازلة الرائعة هذه بالمزايا الأدبية، عامل آخر، وهو ورودها في مجاميع الأدب مثل «جمهرة» الشيزري التي لم تنشر بعد[٦٧]، «ومحاضرات» الراغب الأصفهاني[٦٨]. فهي إذاً بمثابة همزة الوصل بين كتابة النوادر التاريخية وكتابة النوادر الأدبية.

ومن المعروف أن الأدب قد كتب لمستهلكيه، وهو على الأغلب المثقفون من أبناء الأرستقراطية والطبقات الثرية، والموظفون الذين كان يطلق عليهم في تلك الفترة اسم «كتاب»، والعلماء وبعض رجال الدين والشعراء إلخ ممن يتقنون القراءة والكتابة، وكان عددهم

---

(٦٦) انظر: A. Sachs, *The Prantksters Decline*, Tel Aviv, 1979, pp. 32 - 33، مثلاً، ويخص هذا البحث الأدب الأوروبي..

(٦٧) الشيزري، المخطوطة المذكورة، ورقة ١٢٣ و ـ ١٢٦ ظ.

(٦٨) الراغب الأصفهاني، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٦٩٤.

ضئيلاً في جميع حضارات القرون الوسطى في الشرق والغرب. ورغم هذه الصلة الواضحة بين النتاج الأدبي والطبقات المثقفة، فإن بعض الموادّ التي ظهرت في البيئة الشعبية تسللت إلى كتب الأدب. والهدف المنشود من إدخالها في مجاميع الأدب ما هو إلا إمتاع المثقفين والطبقات العليا وإفادتهم بواسطة الخروج من المألوف لديهم.

٢. بين الفطرة والتحضّر

تدور أقصوصة ابن الجنيد التي أوردناها أعلاه، وأمثالها من النوادر، حول محور قصصي واضح يمكننا أن نسميه «القروي بمواجهة المدني»، أي مقابلة القروي، المتميز بالفطنة على الرغم من «سذاجته»، مع المدني القليل الذكاء، وإن كانت هذّبته رفاهية الحياة. وتنتمي إلى نفس الطراز، أي «القروي ↔ المدني»، قصص تقوم على نوع آخر من المواجهة نعتبرها نقيض المواجهة الأولى تماماً، ألا وهي التقاء الريفي الغبي، وإن كان متوسط الحال، بالمدني العاقل وإن كان فقيراً، كما يتضح لنا عند قراءة «المقامة البغدادية» لبديع الزمان الهمذاني(٦٩).

إذن فنحن بحيال مواجهة بين عنصرين حضريين ـ (sedentary).

---

(٦٩) بديع الزمان الهمذاني، «المقامات»، بيروت، ١٩٥٨، ص ٥٩ ـ ٦٢. وانظر كذلك وصف «حماقة» فلاح عند مؤلف مجهول، «أنس الوحيد»، مخطوطة فاتح، ٣٦٧٦، ورقة ١٥٦ ظ، في حين أن الرسالة الشعبية في المكتبة الأهلية، باريس، القسم العربي. ٣٥٧١، ورقات ٣٣ و ـ ٤٢ و، مكرّسة كلها لمدح ذكاء أحد الفلاحين و «شطارته».

لا يخفى على كل من يرغب في صياغة قواعد إيضاحية للظواهر الأدبية أن قسماً وافراً من نوادر العصور العباسية ينحو هذا المنحى. ذلك لما في هذه النوادر من تناقض بين مفاهيم مختلفة تسود المجتمع الحضري، سواء كان هذا التناقض يتمثل في تضارب العقليات أو في تفاوت الطبقات. فلا شك أن أغلب النوادر تعبّر عن هذا الواقع في تناولها لطبقات معينة من الناس على شتى أنواعهم وأخلاقهم وحرفهم ومناصبهم، حتى أنها لا تهمل البؤساء منهم والمجرمين[٧٠].

فالتناقض في الأدب بين الريفي العاقل والمدني الغبي، أو الريفي الغبي والمدني الذكي، يعتمد على مثل هذا التفاوت والخصومات المتوفرة في قصص الشرق والغرب التي لها خلفية حضرية[٧١]. بيد أن مواجهة هذين العنصرين الحضريين لم تكن بعد لتثير الاهتمام لدى جمهور سامعي النوادر في مستهلّ الفترة الإسلامية، بل انصبّ جلّ اهتمامهم على محور قصصي أكثر ملاءمة اجتماعياً وثقافياً لهذه الحقبة من التاريخ العربي الإسلامي. فحسب أقوال باحثي التاريخ، مرّ المجتمع في تلك الحقبة بمراحل التحضّر (acculturation)[٧٢]، ولذلك فلا عجب أن محور القصص قد تمثل

---

(٧٠) انظر أعلاه، الفصل الأول: ٥.

(٧١) انظر مقالتنا: «The 'Nomad versus sedentary' Framework», *Fabula* (Göttingen), xv, p. 85 (and note 120).

(٧٢) انظر R. Blachère,«Regards sur l'acculturation», *Arabica*, III, (1956), pp. 247 - 265 وبحثنا: («The Nomad...») المذكور، ص ٥٩ ـ ٨٦ ويضاف هنا إلى مصادر القصة المذكورة في المقالة: ابن الجوزي، «الأذكياء»، الطبعة المذكورة، ص ٩٥ ـ ٩٦؛ النواجي، المصدر المذكور، =

أنـذاك فـي مـوضـوع «الـبـدوي ـ (nomad) تـجـاه الـحـضـري ـ (sedentary)». وتنقسم النوادر التي تدور حول هذا المحور، هي الأخرى، إلى قسمين: البدوي الغبي الساذج تجاه الحضري العاقل المتطور، ومن ناحية أخرى: البدوي العاقل العريق تجاه الحضري الغبي المتكلف. ولا شك أن محافل الشعوبية مثلاً شجّعت القسم الأول وساهمت في نشره وتطويره مع أن الأدب العربي لم يحتفظ من هذا النوع إلا ببعض الآثار القليلة، في حين أن القسم الثاني يحتل الحيّز الأكبر في كتب الأدب لأنه ينبع من صميم الروح العربية التي تمثل حب البداوة والتعلق بتقاليدها واحترام التراث «الكلاسيكي» وتسود هذه الروح أقدم مجاميع النوادر، أمثال نوادر الأصمعي المتوفى عام ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م، التي ضاعت ولم يبق منها إلا مجموعة واحدة عنوانها المنتقى أي منتخبات من كتابه(٧٣) وربما

= ص ٩٠ ـ ٩٢؛ القرشي، «بهجة القلوب»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٤٥، ورقة ١٠ و ١١ ظ. وانظر مقالتنا «Meubles et acculturation», *Annales*, XXV (1970), pp. 1354 - 1375. حيث ترجمنا في الصفحتين الأخيرتين «قصة البدوي والحضري»، ونزيد على مصادرها المذكورة في المقالة: ابن قتيبة، المصدر المذكور، ج ٣، ص ١٧٩؛ وكذلك انظر مقالتنا («Vin fait...») المذكورة، ص ١٤٩، ومقالتنا «البيئة الشعبية محور الأدب القصصي» المذكورة، بالأخصّ ص ٣٧ ـ ٤٠.

(٧٣) الربعي، «المنتقى من أخبار الأصمعي»، دمشق، ١٩٣٦؛ وورد ذكر نوادر الأصمعي عند المسعودي، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٣٧٩. وانظر أيضاً الإشارات الكثيرة إلى الأصمعي عند ابن عبد ربه، المصدر المذكور، في فهرست الإعلام؛ ومما نسب إليه وليس له: القالي، «الأمالي»، القاهرة، ١٩٢٦، ج ٢، ص ٢٦٥. ومن المؤلفين المتأخرين: الأتليدي، المصدر المذكور، ص ٥٤، حيث تنسب إلى الأصمعي خرافات شتى، أما عن الحكايات شبه الشعبية التي نسبت إليه فانظر الملاحظة التالية. وانظر كذلك =

استحق الأصمعي، لذلك، هذا الإهتمام الكبير الذي أولاه إياه الأدب الفصيح والأدب الشعبي عندما نسبا إليه وفرة غزيرة من النوادر، منها ما ينتمي إلى مجاميع الأصمعي ومنها ما ابتكره الرواة والقصاص ونسبوه إليه بعد وفاته بقرون(٧٤).

وربما كان من الجدير بنا أن نذكر هنا بالإضافة إلى الأصمعي، مؤلفاً آخر هو ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ/ ٩٣٣ م، وكان من جامعي النوادر الذين تعتمد مجاميعهم على كلا المحورين، أي «البدوي ↔ الحضري»، و«الحضري ↔ البدوي». ولذا، فقد كان من الطبيعي أن يعتبره الدكتور زكي مبارك رائد المقامات ومبتكر هذا النوع الأدبي(٧٥)، والمقامات، كما هو معروف، فنّ لا يخلو من الصبغة الهزلية.

= عبد الجبار الجومرد، «الأصمعي، حياته وآثاره»، بيروت، ١٩٥٥، من ص ٢٩٥. أحمد كمال زكي، «الأصمعي»، القاهرة، د.ت. وهو كتاب حافل بنوادره. أما عن أهمية النوادر والدور الذي لعبته في تبلور الأدب العربي وكفاحه ضد الشعوبية فراجع H.A.R. Gibb, « The Social Significance...», in *Studies in the Civilization of Islam*, London, 1962, p. 65.

(٧٤) بالنسبة لمخطوطات «سيرة بني هلال» ـ انظر مثلاً A. Mingana, *Cat. Ar. Mss*, Manchester, 1934, p. 866. ولكن الطبعات لا تورد اسم الأصمعي وغيره من الرواة، مثل أبي عبيدة، وإنما تبدأ الحكايات بالكلمتين: قال الراوي، كما في «سيرة بني هلال»، دمشق ١٩٢٧. وانظر كذلك عبد الجبار الجومرد، الدراسة المذكورة، ص ٣٢٨، حيث يذكر المؤلف كيف نسبت أخبار بني هلال إلى الأصمعي. ونجد اخبار الأصمعي حتى في المجاميع الأدبية في القرن الثامن عشر: الحفناوي البساري، «بغية الجليس»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٤٨، من ورقة ١١٨ و.

(٧٥) انظر زكي مبارك، «النثر الفني»، القاهرة، ١٩٣٤، ص ١٩٧ ـ ٢٠٥، ٢٢٧ =

وعلى الرغم من تطور الحضارة العربية وابتعادها، بعد عدّة عصور، عن المراحل الأولية للتحضر ـ (acculturation)، وعن المنافسة التي عهدناها في أول الأمر بين المفاهيم البدوية والحضرية، فإن طراز النوادر والقصص التي تدور حول هذا المحور لم يتلاش لدى ظهور الطراز الأحدث نسبياً «الحضري ↔ الحضري»، الذي ظهر لأول مرة في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي أو قبل ذلك بقليل[٧٦]. فاستمرار النتاج الأدبي حول محور «البدوي ↔ الحضري» وازدهاره، إلى جانب المحور «الحضري ↔ الحضري» يعود إلى عدة أسباب، منها أن الثقافة والأدب العربيين يمتّان بصلة وثيقة إلى البداوة، ومنها استمرار تبادل العلاقات بين مناطق الحضارة والبداوة وبين سكان المدن وقبائل الأعراب والبربر في البلدان العربية إلى يومنا هذا، وتوغل بعض العناصر المتجولة في بلدانه، أمثال بني هلال في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي[٧٧]، ويوضح الرسم التالي بعض التناقضات التي تولّد الهزل في تلك القصص[٧٨]:

(حذفنا هنا رسماً بيانياً ، اشتملت عليه طبعة ١٩٨٣، يشرح

= ـ ٢٣٣. وثمة نظريات أخرى عن إبداع هذا النوع:

A. Mez, *Abulkasim, ein Bagdader Sittenbild*, Heidelberg, 1902, pp. XXIII - XXIV; R. Blachère, P. Masnou, *Al-Hamadani*, Paris, 1957, pp. 1 - 28; A.F.L. Beetson, «The Genesis of the Maqamat Genre», **J.A.L.**, II, 1971, pp. 1 - 12

(٧٦) بفضل الجاحظ الذي جمع في الشوارع والأسواق كثيراً من النوادر الواردة في كتبه، مع أنه قد سبقه بعض الأدباء أمثال هيثم بن عدي والميداني.

(٧٧) انظر أعلاه، ملاحظة ٧٤.

(٧٨) الرسم مأخوذ من مقالتنا «البيئة الشعبية» المذكورة، الصفحات المذكورة.

إطار التلاعب بين البيئة الأعرابية والبيئة الحضرية وكيف انضم إلى هذا التلاعب محور قصصي وهزلي آخر، يتواجد داخل البيئة الحضرية: محور التلاعب حضري ↔ حضري: مدني تجاه قروي، على سبيل المثال، وذلك ابتداءً من فترة معينة ، عندما صارت النصوص المتوفرة لدينا تعكس تلك الحالات).

٣. نظرية النديم المتأدب

قد اتضح من خلال الحكايات عن ابن الجنيد المذكور أعلاه أن وظيفة النديم في بلاط الخليفة وقصور الأمراى وبيوت الأثرياء معقّدة محفوفة بالمتاعب ولم تقتصر المنادمة على مشاربة كبار القوم فحسب وإنما اتسع معنى «المنادمة» فشمل، في بعض الظروف، (٧٩) المرافقة في الصيد والسفر ولعب الشطرنج وتناول الطعام، وإن كان لكل عمل من هذه الأعمال تسمية خاصّة به؛ وأمثال تلك التسميات «مزاملة» المسافر، «والملاعبة»، و«المؤاكلة».

فمدلول وظيفة النديم يضاهي بعض المضاهاة معنى كلمة

---

(٧٩) ويترجم شارل بلا كلمة نديم: familier du roi وأحياناً: ـ courtisan أي دائماً بمعنى أوسع من مجرد من يعاشر الملوك والأمراء في أوقات شرابهم فحسب، وانظر: Ch. Pellat (trad.) **Le livre de la couronne**, Paris, 1954, pp. 19, 73, 99 ويحتوي هذا الكتاب المنسوب للجاحظ، «التاج في أخلاق الملوك»، الطبعة المذكورة، على فصول تتناول موضوع المؤاكلة والمرافقة في الصيد والألعاب، كما يحتوي عليها كتاب كشاجم، «أدب الندماء»، الإسكندرية، ١٣٢٩ هـ، وانظر كذلك: A. Chejne, «The Boon - companion in Early 'Abbasid Times», *J.A.O.S.*, LXXXV, 1965, pp. 327 - 335.

«أديب» قديماً، أي بمعنى: المثقّف الخبير بالمعارف وآداب السلوك جميعاً، أي الأديب الظريف(٨٠). ووفقاً لذلك، فإن مهمته، هي تسلية «الرئيس»(٨١) الذي يسمّى أحياناً «الرأس». إن مهمة النديم في تسلية «الرئيس» وتثقيفه هي في غاية الخطورة والتعقيد. فإذا لم يلجأ إلى اعتماده المزاح في الظروف الملائمة واللائقة به، وإلى إبداء الجدّ في المقام المناسب له ـ فإنه يعرض حياته للخطر:

«وليس أحد ممن يصحب الملوك ويخالطهم أولى باستجماع محاسن الأخلاق وفضائل الآداب وطرائف الملح وغرائب النتف من النديم، حتى أنه ليحتاج أن يكون له مع شرف الملوك تواضع العبيد، ومع عفاف النساك مجون الفتاك، ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث: وكل واحدة من هذه الخلال هو مضطر إليها في حال لا يحسن أن يجانبه غيرها»(٨٢).

أو بعبارة أخرى: «فشرائطها [أي: شرائط المنادمة] أكثر من منافعها»(٨٣)، أي: «شرائط صعبة ومسالك ضيقة، ينقبض الخاطر عند سماعها، فضلاً عن مشاهدتها وعيانها..»(٨٤). فعلى النديم

---

(٨٠) راجع: M. F. Ghazi, «Un groupe social», *Studia Islamica*, XI, 1959, pp. 40 - 41; M. Bergé, *Abû Hayyân al-Tawhîdî*, Damas, 1979, p. 55 suiv.

(٨١) ويقال: «الرئيس»، «رأس المجلس»، «رب المجلس»، «الرؤساء والعظماء» الخ، وانظر ابن المعتزّ، «فصول التماثيل في تباشير السرور»، القاهرة، ١٩٣٥، ص ٧١؛ النواجي، المصدر المذكور، ص ٢٦.

(٨٢) انظر المصادر التي تتناول آداب السلوك هذه، في الملاحظتين ٨٥ ـ ٨٦، أدناه.

(٨٣) ابن المعتز، الصفحة المذكورة.

(٨٤) النواجي، الصفحة المذكورة.

إذاً، أن يتقن جيداً لغتي البلاط الجدية والهزلية، فيعرف متى وكيف يبلغ إلى الطرفين النقيضين: منتهى الرزانة ومنتهى المزاح، حتى «مزاح الأحداث»، أي الهزل الطفولي. فبين الفينة والفينة لم يتجنب البلاط وعليّة القوم وندماؤهم، ممن درج على التسلية المهذّبة، أكثر وسائل الإضحاك بدائيةً وسطحيةً...

إذن، فنحن بحيال رؤية خاصة يمكننا أن نسميها نظرية وظيفة النديم أو وظيفة الرزانة والمزاح وأساليب التسلية في الطبقات العليا ومجالس الظرفاء والمهذّبين... فالحضارة العباسية قد ورثت هذه النظرية («وليس أحد») عن الفرس رغم ظهورها في أربعة مصادر نظرية أصلية وليست دخيلة(٨٥)، إلا أن هناك مصدراً خامساً، أقدم من الأربعة، يُظهِر بوضوح الجذور الساسانية لهذه النظرية(٨٦). إذن، فالأمر هو بمثابة ملاءمة اجتماعية أدبية بين التراث الفارسي ومتطلبات المجتمع العباسي.

---

(٨٥) كشاجم، المصدر المذكور، ص ٩ـ ١٠؛ الرقيق القيرواني، المخطوطة الباريسية المذكورة، ورقة ٧٩و [وفي نشرة الجندي لكتاب القيرواني، دمشق، ١٩٦٩، التي تعتمد على مخطوطة لندن الجزئية والتي ينقص فيها ما نشير إليه عادة في ملاحظاتنا، وردت الحكاية في ص ٢٨٩]؛ النواجي، المصدر المذكور، ص ٢٧؛ مؤلف مجهول، «آداب الملوك على الشراب»، المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٥٣١٤، ورقة ٢ ظ. ونشير كذلك إلى فصل في مختصر كتاب القيرواني، «المختار من قطب السرور»، تونس، ١٩٧٦، ص ١٣٦: باب أخلاق الملوك على الشراب. وانظر كذلك «نزهة الأصحاب في معاشرة الأحباب» لمؤلف مجهول، مخطوطة التيمورية، أدب، ١٥٢، ورقة ٩٥ ظ، حيث ورد نفس النص تقريباً.

(٨٦) المسعودي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٤٥؛ وقارن مع احسان عباس، «عهد اردشير»، الطبعة المذكورة، ص ٩٤ ـ ٩٥.

٤. التحفظ الأخلاقي ـ الديني من المزاح ومن كذبه في كتب الأدب

لكي نقف على كنه الهزل والمفاهيم التي يتضمنها، وعلى كنه تطوراته، فإنه لمن المهمّ أن نستجلي رؤية الأدباء في تلك الفترة ومواقفهم من ظاهرة الهزل عامة[٨٧]. ولا حاجة بنا إلى القول بأن

---

(٨٧) أمّا عن نظرية الجاحظ في الهزل والمزاح فراجع في سياق الفصل الثاني: ٤، أدناه، وقارن مع نظرية الغزّي والكرمي، أدناه، ملاحظة ٩٨. وانظر كذلك أعلاه، ملاحظة ٤، دراسة F. Rosenthal ومقالتيّCh. Pellat ـ المذكورتين بالإضافة إلى كتابه «أصالة الجاحظ»، الدار البيضاء، ١٩٦١ ـ ١٩٦٢، ص ٢٣. وراجع كذلك، العطري، البحث المذكور، من ص ٢٣، حيث يتناول المؤلف موقف الإسلام من المزاح. ومما يشهد على ميل الأدب العربي إلى تناول موضوع المزاح عامة، والنهي عنه والترخيص فيه دينياً ـ النماذج التالية التي ليست إلا قسماً ضئيلاً مما يتوفر في الأدب في القرون الوسطى. . . حتى القرن التاسع عشر: يبدي ابن قتيبة رأيه في قضية المزاح عندما يتناول موضوع «الدد» (أي اللعب و«الباطل») وموقف سول الله منه، وذلك في كتابه تأويل مختلف الحديث، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٥٥؛ البيهقي، «المحاسن والمساوىء»، بيروت، ١٩٦٠، ص ٦٠٠ ـ ٦٠١: محاسن المزاح، ولا يورد المؤلف مساوىء المزاح؛ «مكارم الأخلاق» لمؤلف مجهول من القرن العاشر الميلادي، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٣٠٠، الفصل العاشر، ويميل فيه المؤلف إلى ذم المزاح؛ وانظر الطبرسي «مكارم الأخلاق»، طهران، ١٣٧٦ هـ، ص ٢٠ ـ ٢١: «في مزاحه وضحكه صلى الله عليه وآله»؛ البستي، «روضة العقلاء»، القاهرة، ١٩٤٩، من ص ٨٥، وطبعة القاهرة ١٩٥٥، من ص ٦١؛ الحصري، «زهر الآداب»، الطبعة المذكورة، ص ١٦٠، ١٦٤ ـ ١٦٥؛ ٤٧٦؛ «جمع الجواهر»، الطبعة المذكورة، ص ١٣ ـ ١٨، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٤٠، ٥٩، وفي أغلب هذه الفقرات ميل إلى ترخيص المزاح والإنتفاع به الخ؛ الثعالبي، «لطائف الظرائف»، جمع المقدسي، الطبعة المذكورة، ص ٥٨ ـ ٥٩؛ =

... ...

= الآبي، «نثر الدرّ»، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي ٢٧١٤، الرقم القديم ٢٠٧٢، ج ٢، ورقة ٥٣، ومخطوطة دار الكتب، ٣٢٦، أدب، مجلد ٢، من ورقة ٢٧ و: مزح الأشراف والأفاضل العلماء؛ الماوردي، «أدب الدنيا والدين»، القاهرة، ١٩٢٢، ص ٣٨٢ ـ ٢٨٥؛ ابن عبد البرّ النمري، «بهجة المجالس»، بيروت والقاهرة، ١٩٦٢، ج١، ص ٥٦٥ ـ ٥٧١؛ الراغب الأصفهاني، المصدر المذكور، ج ١، ص ٢٨١ ـ ٢٨٣؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة ترخان والده، ٢٧٣، ورقة ٢٦٥ ظ ـ ٢٦٧ ظ، ومخطوطة دار الكتب، ١٥٥، أدب، ورقة ٣٣٢ و: الباب الثمانون في الملح والمداعبات والمضاحك وما جاء من النهي عن المزاح والترخيص فيه...؛ ومختصر هذا الكتاب ـ «روض المختار من ربيع الأبرار»، الطبعة المذكورة، ص ٢٠٩؛ ابن حمدون، «التذكرة»، مخطوطة راغب باشا، ١٠٨٤، من ورقة ١٠٩ ظ، ومخطوطة دار الكتب، ١٥١٤، أدب، من ورقة ١٤٣ ظ؛ الأموي، «كتاب السياسة»، مخطوطة كوبريلي، ١٢٠٠، من ورقة ١٦٧ و؛ ابن الجوزي، «أخبار الحمقى والمغفلين». بيروت، ١٩٦٧، ص ١ ـ ٣؛ موسى بن يوسف المارديني، «محاسن الأدب واجتناب الريب»، مخطوطة دار الكتب، ٣٧٤، أدب، ورقة ٦٤ ظ؛ النويري، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١ ـ ٣، ولا نجد عنده إلاّ أقوالاً بفضل المزاح؛ ابن الحاجّ القرطبي، «نزهة الألباب الجامعة». مخطوطة دار الكتب، ١٣١٧، أدب، ورقة ٨٣ و؛ ابن أبي حديد، «شرح نهج البلاغة»، القاهرة، ١٩٥٩، ج٦، ص ٣٣٠ ـ ٣٣٧؛ الأبشيهي، المصدر المذكور، ج٢، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥، محمد بن عاصم القيسي، «حدائق الأزهار»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٣١٧٨، ورقة ٣٤ ظ ـ ٣٥ و، ومخطوطة دار الكتب، ١٨٣٢، أدب، ورقة ٤١ و؛ ابن الشجري، «ترويح الأرواح»، مخطوطة باريس، القسم العربي، ٣٥٢٧، من ورقة ٧ و؛ محمد بن عبدالله الهندي، «مبهج النفوس»، مخطوطة كمبريدج، Qq-١٩١، ورقة ٢ و؛ محمود بن محمد، ولا يعرف اسمه الكامل، «المحاضرات والمحاورات»، مجموعة ريلندس، مانشستر، (٨١٨) ٦٧٤، ورقة ٤٤ ظ: الباب الثاني عشر في المزاح؛ مؤلف مجهول، «منتخب المختار»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم =

مواقف أدباء القرون الوسطى ووجهات نظرهم لا تنفصل عن المواقف والمفاهيم الأخلاقية والدينية السائدة في بيئتهم. ولقد كانت في المجتمع العربي الإسلامي آنذاك تحفظات من ظاهرة الهزل. على أنه يجدر بنا أن نحذر قدر الإمكان، ونحن في مجال البحث الأدبي، من الخوض في مواضيع ترتبط أصلاً بمشاكل الدين والفكر الديني وهي مشاكل من اختصاص باحثي علوم الفقه الإسلامي والأخلاق الدينية الإسلامية. وعلى كل حال فلا بأس من أن نتمعن في انعكاسات هذه الأمور في العمل الأدبي، أي أدب القرون الوسطى. وذلك لعدة أسباب:

= العربي، ٣٣٢٥، من ورقة ١٥٨ و، وقد يكون هذا الفصل ملخصاً عن الفصل المذكور عند ابن حمدون، المصدر المذكور، الورقة المذكورة؛ مؤلف مجهول، «رياض الأفكار»، مخطوطة دار الكتب، ٤٦٩٩، أدب، ورقة ١٩٨ ظ.

ومن كتب الدين نكتفي بالإشارة إلى البخاري، «الأدب المنفرد»، القاهرة، ٢٣٧٩ هـ، ص ٧٧ ـ ٧٨، ١٠١ ـ ١٠٣؛ الترمذي، «الشمائل» مع شرح علي القاري»، القاهرة، ١٣١٧ هـ، ص ٢٨ ـ ٤٠، ومع شرح الباجوري، القاهرة، ٢٣٤٤ هـ، ص ١٣٦ ـ ١٤٥؛ السمرقندي، «بستان العارفين» (على هامش «تنبيه الغافلين»)، القاهرة، د.ت. ص ١٤٨؛ ابن الجوزي، «الوفاء بأحوال المصطفى»، القاهرة، ١٩٦٦، ج ٢، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٧؛ ابن كثير، «شمائل الرسول» القاهرة، ١٩٦٧، ص ٨١ ـ ٨٥، الحلبي، «السيرة الحلبية»، القاهرة، ١٣٨٠ هـ، ج ٣، ص ٥٦٧ ـ ٨٦٥. وانظر العامري، «بهجة المحافل»، المدينة، ١٣٣٠ ـ ١٣٣١ هـ، ج ٢، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥: «فصل في مزاحه صلى الله عليه وسلّم»، وانظر كذلك ما سيرد في سياق هذا البحث عن الغزي وعن الكرمي. ولا حاجة أن نذكر أن مثل هذه المواد تتوفر في بعض كتب الحديث والأخلاق وغيرها، وقد جمع هذه الآثار ولخصها النبواني، من علماء القرنين التاسع عشر والعشرين في «وسائل الوصول»، بيروت، ١٩٧٠، من ص ١٣٤.

أولاً: يلقي إيضاح الجانب الأخلاقي الديني لهذه القضية، أي قضية المزاح، ضوءاً على الجانب الأدبي. فالأدباء الذين يوردون في كتبهم الحديث النبوي القائل بأن رسول الله «كان يمزح ولا يقول الآ حقاً»[٨٧-أ] يفعلون ذلك لغرضين: الغرض الأخلاقي الديني والغرض الأدبي وهو الأمر الذي يهمنا هنا. ولا يصعب على من يتصفح المجاميع الهزلية المتأخرة (من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) مثلاً، أن يعثر على طريقة طريفة في استعمال هذا الحديث النبوي. فالمؤلفون لا يكتفون بإيراد الحديث ضمن الفقرات المكرسة لمسألة المزاح ومزاياه في فصل من فصول الكتاب، وإنما يوردونه بعد ديباجة الإفتتاح أو ضمنها، وقبل تعداد أبواب المجموعة وفصولها (أي ما يسمى اليوم بقائمة الموضوعات؛ فهذا الموضع من الكتاب، قبل القائمة، يقابل «الشعار» [moto] ـ الذي تثبته مطابع اليوم تحت العنوان الرئيسي، أو في صفحة منفردة، أو على الغلاف). هذا ما نجده في عالم الأدب العربي عشية انبثاق النهضة العربية الحديثة. ولكن حتى في عصر النهضة نلاحظ أن أديباً من أدباء القرنين الأخيرين استخدم «شعاراً» من هذا النوع، أي الحديث النبوي المذكور، على غلاف كتابه[٨٨]. بهذه الوسيلة يعبّر المؤلفون القدماء عن موقف هو من

(٨٧-أ) انظر الملاحظة السابقة والملاحظة التالية.

(٨٨) انظر قائمة المؤلفين الذين تناولوا هذا الموضوع الأخلاقي والحديث النبوي الشريف المذكور، في الملاحظة ٨٧. أمّا المؤلفون المتأخرون نسبياً الذين اقتبسوا الحديث في ديباجة كتبهم فانظر مثلاً محمد بن عبدالله الهندي، «مبهج النفوس»، مخطوطة كمبريدج، ١٩١ ـ Qq، ورقة ٢ ظ؛ مؤلف مجهول، «نزهة الأدباء»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١٣٥٧، ورقة ١ ظ ـ ٢ و؛ وقارن كذلك مع مؤلف مجهول، «الروض =

صميم الأدب، أي أنهم يشيرون بذلك إلى أنه من المسموح به أن يستخدم الكاتب أساليب الخيال والمبالغة، بشرط ألا يجتاز الحدّ الفاصل بين الحقيقة والكذب المستنكر أخلاقياً. وبذلك يردّون مسبقاً على كل معترض ينفر من الأدب المبتكر لكونه «لا أخلاقياً».

ثانياً: نحن حيال قضية حضارية علاوة على كونها أخلاقية دينية. فالموقف الذي تقفه كل حضارة إنسانية، في شتى مراحلها، من الملاهي ووسائل الرفاهية وما يحرّم منها وما يستحلّ ليس إلا انعكاساً صادقاً لمحاولات تجنّب بعض «الآفات» الأخلاقية. ونجد ذلك، في العالم الإسلامي، انطلاقاً من أسهل تلك الوسائل استحلالاً وقبولاً، كبعض أنواع الزينة والطيب وما يليق منها بالرجال أو بالنساء، ومروراً بما هو أصعب، كبعض ألعاب الطاولة الألعاب المسرحية والرسم الفني ـ وانتهاءً بأقصى درجات الصعوبة مثل تقييدات الأشربة المحرمة، وحتى فيها نعثر على شتى الطرق لكل من التعنت في النهي والتحليل[٨٩]. إنّ تجنّب قسم معيّن من رجال الدين للمزاح ومظاهره لا يعني بالضرورة التحريم التامّ وقد يكون بمثابة «الاستكراه» والإنذار مما يثير بعض الصعوبات من ناحية

= الناصر»، مخطوطة باريس، الكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٨١، ورقة ٢ و. أما الكاتب، بعد ابتداء النهضة المذكورة، الذي اختار هذا الحديث النبوي شعاراً لكتابه فهو المويلحي، «حديث عيسى بن هشام»، القاهرة، ١٣٣٠ هـ، على الغلاف؛ وراجع: M. Peled, «Creative Translation», *J.A.L.*, p. 140 (and note 24).

(٨٩) انظر مقالتنا «Vin fait de civilisation» ـ المذكورة أعلاه، ص ١٤٢ ـ ١٤٤، حيث أوردنا هذا «السلّم» من المواقف «الأخلاقية» فيما يتعلق بأنواع الرفاهة.

الدين، كما هو بمثابة رفض بعض أنواع المزاح دون بعضها الآخر، ولذلك، فإننا حين نتناول بعض الحقائق من ناحيتها الأدبية الأخلاقية لا نرمي إلى إبداء أيّ رأي لنا في القضايا الدينية. . .

ثالثاً: وهو الأهم ـ أن موقف كتب الأدب، وبالأخص الأدب الهازل، من القضايا الدينية وشبه الدينية والأخلاقية حري بأن يعتبر جزءاً لا يتجزأ من أدبها. ومن الضروري التوضيح ما إذا كانت هذه الموادّ ترد في تلك الكتب لمجرد اهتمام جامعيها بها علمياً ونظرياً، أم أن هؤلاء المؤلفين يتقيدون، عن صدق وأمانة، ضمن كتبهم وفصولهم الهازلة، بالقيود التي تفرضها الرؤية الدينية. وهكذا فكل هذه المسائل لا تتعدى حدود الأدب بل هي من صميمه.

وفي كتب الأدب التي تخللتها فصول عن هذه النواحي الأخلاقية يعود التحفظ من الضحك والمزاح إلى تجنب أهل تلك الفترة لما قد يبدو لهم «كاذباً». فربّ فكاهة أو نادرة تعتمد في مغزاها على تناقض شكلي ومعنوي قائم بين العناصر التي تكونّها: دمج التراكيب المنطقية بتراكيب غير منطقية، أو المفاجأة بإدخال عنصر غير متوقع، أو المبالغة في الوصف مما يعتبر ابتعاداً عن الحقيقة الواقعية، أو التخلي عنها واللجوء إلى الفنتازيا. . . ولم تكن تلك الفصول تستهدف بادئ ذي بدء كشف أسس الهزل من الناحية الإنسانية النفسية وناحية المبنى الأدبي وما يكمن فيه من تراكيب. ولكن مما يثير العجب أن تلك الفصول توصلت بالفعل إلى توضيح بعض النواحي إلى حدّ كبير.

ويتجلى صدى المواقف الأخلاقية المختلفة من خلال التفاوت بين التعابير والتشبيهات التي صاغتها شخصيات دينية وتاريخية

مرموقة، لدى وصفها لظاهرة المزاح. فثمة من حدّد الهزل بأنه من مكائد الشيطان، كما أن هناك من استمرأ المزاح. بيد أن طريقة الإعتدال التي فاضت الطرفين النقيضين وانتصرت عليهما في فصول الأدب، اقتدت بسنة رسول الله الذي كان «يمزح ولا يقول إلا حقاً». ولا نجد فصلاً من فصول الأدب المذكورة إلا ويقتبس هذا الحديث؛ إذ أن رسول الله لم يبالغ في صياغة هزله، وفقاً لما رواه أصحاب السير والحديث ومؤلفو الكتب والمجاميع الهزلية كما نرى في هذا البحث. ولم تجد تلك الفصول سبيلاً أفضل من التوسط والاقتصاد في مثل هذه الأمور، أي عدم التخلي عن الهزل كلياً، مع المحافظة على الصدق. غير أن للكذب، بالمعنى الأدبي الكلاسيكي، أهمية كبيرة في تكوين النتاج النثري والشعري، إذ أن هذا الكذب، حسب المفاهيم «اليونانية» وآراء بعض نقاد الأدب العربي القدماء، هو أساس الخلق الفني وهو بمثابة الخروج من الحقيقة إلى المجاز[٩٠]، وإضفاء بعض الخيال على كل وصف بدلاً

---

(٩٠) ص ٣٦ ـ ٣٧ من مقدمة Bonebakker لكتاب قدامة بن جعفر «نقد الشعر»، ليدن، ١٩٥٦، ابن رشيق، «العمدة»، القاهرة، ١٩٣٤، ج ب، ص ٢٢: «ومن فضائله أن الكذب الذي يجمع الناس على قبحه، حسن فيه» [أي في الشعر]، وفي ص ٢٤ أن رسول الله لم ينكر على كعب بن زهير «قوله وما كان ليوعده على باطل...» وراجع ع.ر. بدوي، «حازم القرطاجني» القاهرة، ١٩٦١، من ص ٧، وبحث فيه W. Heinrichs, *Arabische Dichtung und griechische Poetik*, Beirut, 1969, pp. 44-45, 56-65. ومما يثير العجب أن هينريخس لم يفطن إلى هذه الظاهرة الأدبية الهامّة التي نحن بصددها لأن دراسته تخص الشعر ولا تخص المزاح في النثر. وانظر كذلك مسألة الكذب والباطل في المزاح، أعلاه، ص ٥٦ ـ ٦٠، وأدناه، ص ٦٣ ـ ٦٩.

من الإدلاء بالوقائع الجافّة. وهذه الفكرة التي تنطبق على مبادئ الأدب بمختلف فروعه تتلاءم بشكل خاص مع نصوص الهزل. ومن الجدير بالذكر أن البحث الحديث في هذا المجال الأدبي لم يربط بعد بين الموقف المتردد من ظاهرة «الكذب» في الهزل، كما ينعكس في كتب الأدب والأخلاق والدين، والموقف الإيجابي من «الكذب الأدبي»، كما تعبر عنه كتب البلاغة والنقد العربية القديمة. فلا شك أننا حيال ظاهرة تستدعي الاهتمام، وخاصة أن الموقف الأول، (أي «الكذب» في الهزل) قد نشأ منشأً أصيلاً دون أدنى تأثير جانبي، يونانياً كان أو غير يوناني!

فالجاحظ، على سبيل المثال، الذي لم يكن أديباً فحسب، وإنما كان ينتمي إلى مدرسة دينية أخلاقية وهي حركة المعتزلة الفكرية، يبيح شيئاً من «الكذب» الأدبي وخشونة المزاح ويوصي بإيراد المواد الهزلية، أي «النوادر» في صيغتها الأصلية، ساذجة كانت أو مهذبة[٩١]. ومن خلال ما يورده ويقتبسه في هذا الموضوع تتجلى مواقف مختلفة: منها أقوال تثني على الهزل وتمدحه، ومنها آراء تندد به بشدة، ومنها اعتقادات وأحاديث تعتبر شر المزاح وخيره متساويين[٩٢]. ومع ذلك فالجاحظ يميل إلى استحلال الهزل والمزاح: «فلو استعمل الناس الرصانة في كل حال والجد في كل مقال وتركوا التمسيح والتسهيل وعقدوا أعناقهم في كل دقيق وجليل لكان السفه صراحاً خيراً لهم والباطل محضاً أردّ عليهم، ولكن لكل

(٩١) الجاحظ، «البيان والتبيين»، الطبعة المذكورة، ج ١، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٩٢) الجاحظ، «التربيع والتدوير»، الطبعة المذكورة، ص ٤٦ ـ ٤٨، ٥٢ ـ ٥٣، ٦٥ ـ ٧٠.

شيء قدّ ولكل حال شكل. فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه. . .»[٩٣]. وبالرغم من عيوب المزاح فإن طريقة «التسميح والتسهيل»، على حد تعبير الجاحظ، تنطبق، استناداً إلى بعض الآراء التي يوردها، على كثير من ضروب الهزل وأشكاله، حتى على المزاح الذي يحوي شيئاً من السخف أو من الباطل. وهو يستنشط القارئ «ببعض البطالات»، ويقتبس أثراً عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال فيه: «إني لأستجمّ نفسي ببعض الباطل مخافة أن أحمل عليها من الحق ما يملّها»[٩٤]. فمن خلال دفاعه عن «الباطل»، أو «بعض الباطل»، لا يقصد الجاحظ التبرير عن «الكذب» لأن معنى «الباطل»، حسب مصطلحاته هنا، ليس الكذب، وإنما هو الخيال الأدبي، الإبداع (fiction) وإدخال بعض المبالغة في الفكاهات وأنواع التندر التي تحتاج إلى ذلك. ويشبه موقفه هذا موقف ابن قتيبة (ملاحظة ٨٧) من «الدد». ولا يعني هذا أن الجاحظ يغض النظر في حالات أخرى عن الكذب المتطرف في ثنايا بعض الهزل، ويستسيغه من الناحية الأخلاقية، ولا يعني أيضاً أنه يبيح استعمال المزاح «للمكر»، «وللخدع»، كما يفعل بعض أهل المزاح وأصحاب المضاحكات لجلسائهم عندما يطعنون فيهم طعناً متظاهرين بالمداعبة[٩٥].

---

(٩٣) نفس المصدر، ص ٥٣؛ وقارن مع «البخلاء»، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٥ ـ ٨، ومع موقف الكرمي، أدناه، ص ٦٧. وانظر الجاحظ، «المعاد والمعاش». و «الجدّ والهزل»، ضمن «رسائل الجاحظ»، القاهرة، ٥ ـ ١٩٦٤، ج ١، ص ١٢٨، ٢٤٥ (عن الملالة والاستطراف).

(٩٤) الجاحظ، «الجواري والغلمان»، الطبعة المذكورة، ص ٩، ١٠، «الحيوان»، الطبعة المذكورة، ج ٣، ص ٢ ـ ٣.

(٩٥) الجاحظ، «التربيع والتدوير»، الطبعة المذكورة، ص ٤٧، ٦٥ ـ ٦٦ وانظر =

فشتان ما بين الكذب الأدبي والكذب الأخلاقي، ولو تمعنا في بعض فكاهات رسول الله التي نقلها كتّاب الأدب من كتب الدين ورصّعوا بها مؤلفاتهم الحافلة بالنوادر الأدبية ـ لاتّضح لنا أنها لا تخلو هنا وهناك من الخروج عن الحقيقة إلى المجاز الأدبي، مع أنها لا تشتمل بتاتاً على الكذب أخلاقياً:

المزاح حسب الأخلاقية المثالية ـ نموذج ١:

«وروى زيد بن أسلم أن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت النبي ﷺ في حاجة لزوجها. فقال لها: من زوجك؟ فقالت: فلان. فقال: الذي في عينيه بياض؟ فقالت: لا والله! فقال النبي ﷺ: وما من أحد إلا بعينه بياض». . .

وفي رواية أخرى: «وقال ﷺ لامرأة من الأنصار: الحقي زوجك ففي عينه بياض. فسعت المرأة نحو زوجها مرعوبة. فقال لها ما دعاك؟ قالت إن النبي عليه السلام قال لي أن في عينك بياضاً! قال الرجل: أن في عيني بياضاً لا لسوء»(٩٦).

= مقالة ـ Ch. Pellat ـ المذكورة في ملاحظة ٤، أعلاه، وموقف الكرمي، أدناه، في سياق الفصل الثاني: ٤.

(٩٦) اعتمدنا على نص ابن حمدون، «التذكرة» مخطوطة راغب باشا، ١٠٨٤، ورقة ١١٠ و، ونسخة دار الكتب، ١٥١٤، أدب، ورقة ١٤٣ و، والغزي، «المراح في المزاح»، القاهرة، ١٣٤٩ هـ، أما انتشار النادرة، على شكليها، في كتب الأدب فانظر: الجاحظ، «التربيع والتدوير»، الطبعة المذكورة، ص ٦٨؛ الماوردي، المصدر المذكور، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة ترخان والده، ٢٧٣، من ورقة ٢٦٥ ظ؛ ابن أبي حديد، المصدر المذكور، ج ٦، ص ٣٣٠؛ الأبشيهي، المصدر المذكور، ج٢، ص ٢٦٣؛ الكرمي المخطوطة المذكورة، ورقة ٨٤ و؛ وكل ذلك على سبيل المثال فقط، لأن هذه الفكاهة ترد في أغلب كتب الدين المذكورة أعلاه، =

المزاح حسب الأخلاقية المثالية ـ نموذج ٢:

«وأتته عجوز أنصارية فقالت: يا رسول الله ادع لي بالجنة! فقال لها: أما علمت أن الجنة لا يدخلها العُجُز؟ فصرخت. فتبسم صلى الله عليه وقال لها: أما قرأت: أنا أنشأناهن إنشاء، فجعلناهن أبكاراً، عُرُباً أتراباً؟»(٩٧)

ولا ينعكس في صياغة هاتين الحكايتين الهازلتين إلا قسم ضئيل ونبذ قليلة مما يروى على لسان النبي. وحسبنا هذا الصنف، لأن المواد الأخرى لا تخلو من الحكم والأقوال الجميلة التي تخرج عن نطاق «الهزل» ومفهومه، أو على الأقل، لا تشكل تلك الأقوال فكاهات بمعنى الكلمة؛ ولذلك وقع اختيارنا على نموذجين من صميم الهزل الأدبي الذي لا مراء فيه.

ففي النادرة الأولى فهمت المرأة شيئاً مخالفاً للواقع وتوهمت أن زوجها قد أصابه مرض من أمراض العيون كالرمد ونحوه، في

= ملاحظة ٨٧، مثل كتب «الشمائل» و «السيرة» الخ. وفي أغلب مجاميع الأدب نجد هذه النادرة عن «بياض العين» والنادرة التي تليها عن «العجوز التي لا تدخل الجنة»، ضمن الفصول المكرسة للمزاح والنهي عنه والمباح منه، وانظر أعلاه، في ملاحظة ٨٧، المراجع: «نثر الدر»، «كتاب السياسة»، «محاسن الأدب»، «نهاية الأدب»، «حدائق الأزهار»، «ترويح الأرواح»، «مبهج النفوس»، «منتخب المختار»، «نزهة الألباب»، «زبد الأدباء»، «رياض الأفكار»، وغيرها. وراجع كذلك العطري، الدراسة المذكورة، ص ٢٣، ٢٤، وقد اختار نفس النادرتين. وذلك مما يثبت أن النادرتين اللتين اخترناهما انتشرتا في مجاميع الأدب أكثر من غيرهما.

(٩٧) ابن حمدون، المخطوطة المذكورة، نفس الورقة؛ وانظر القرآن الكريم، سورة الواقعة، آيات ٣٦ ـ ٣٨. أما عن مدى انتشار هذه النادرة في الأدب فانظر الملاحظة السابقة.

حين أن رسول الله لم يتفوه إلا بالحقيقة (أي أن انسان العين لدى كل شخص يحيط به البياض) ولكن مزاحه هو الذي سبب الخطأ. وفي النادرة الثانية يتبادر إلى ذهن العجوز أن مصيرها لن يؤول إلى الجنة، في حين أن ما قيل لها كان مغايراً لذلك. فليس معناه أن العجوز لن تدخل الجنة، بل تدخلها وهي «غير عجوز»، بعد أن أرجعها الله إلى صباها: المعنى الظاهر: نفي دخول الجنة للعجوز

المعنى الصحيح: نفي «العجز» عند دخول الجنة

ويخلط الأبطال المشتركون في مثل هاتين النادرتين بين الحقيقة والمجاز، سواء فيما يصرّحون به أو فيما يفهمونه ضمن حبكة النادرة، ملمحين بها من طرف خفي. بيد أنه من العسير الوقوف على الفرق بين أسلوب مثل هاتين النادرتين وبين الصبغة التي نجدها من جهة ثانية في قسم كبير من الفكاهات التي تخلق «التناقض الداخلي» المثير للضحك بطريقة أخرى.

نعني بذلك الفكاهات التي لا تعتمد على أقوال متضاربة يتفوه بها المشتركون فيها، وإنما تعتمد في أساسها على طرفين آخرين: أحدهما حبكة الحكاية الهزلية والثاني القارئ نفسه. فالتلاعب الهزلي يجري إذاً، بين هذين الطرفين ويتفاعل بين الطرف المدرك المحق والطرف المخطئ، وقد يكون القارئ في عداد هذا الفريق الثاني. فالنادرة قد يكمن فيها تناقض منطقي بين ما يبدو لأول وهلة وبين ما تتمخض عنه الحبكة أخيراً، أو بين ظاهر الحكاية وبين المفاهيم الراسخة في نفس القارئ. مثلاً ـ لو اعترف أحد الأدباء ضمن ذكرياته أو في سلسلة من انطباعاته أنه ليس من داخلي الفردوس. . . ولو شرح بعد مهلة ما، أنه يعني بذلك عدم زيارة نادٍ من نوادي

باريس اسمه «الفردوس» ـ لكان القارئ يبتسم ولكانت «المداعبة» الهزلية تحصل بين النصّ والقارئ. . . وذلك ما نجده أحياناً في نوادر الثقلاء التي نحن بصددها في كتابنا هذا. وعلى كل حال، فقد أثبتنا هنا أن المزاح يفتقر، كسائر فنون الأدب، إلى عنصر الوهم بمعناه الأرسطوطالي المذكور.

أمّا التلاعب بالمستويات المنطقية المختلفة وتداخلها، ضمن إطار هذا الفرع من النوادر وأمثاله، فيسهل التعبير عنه في صورة تخطيطية تمثل مراحله:

أولاً ـ فرض «خارجي»

= أي ما يبدو من المعنى الظاهر.

ثانياً ـ بروز التناقض

= أي مرحلة التوتر في الحبكة.

ثالثاً ـ الحلّ بواسطة الفرض «الداخلي» = أي ما يكمن من المعنى باطناً، وهو الموقع الذي يحصل فيه الضحك(point, pointe)

بعد هذا التوضيح نعود إلى المزاح النبوي المثالي الذي تحبّذه فصول الأدب الأخلاقية لا يشوبه «الكذب» بتاتاً. ومع ذلك، فمن الناحية الأدبية لا يتنزه هذا المزاح عن التلاعب بالمستويات من الناحية المنطقية. فالإبداع الهزلي متوفر في مثل هذا النتاج الأدبي، ويمكن لمن أراد ذلك أن يرى فيه وهماً أدبياً أي عزوفاً عن الحقيقة بالمعنى الفني اليوناني الكلاسيكي.

ومن أبرز المؤلفين المتأخرين الذين أفرزوا كتاباً خاصاً للمزاح ولموقف الإسلام الأخلاقي منه: الغزي، المتوفى عام ٩٨٤ هـ/ ١٥٧٧ م، صاحب كتاب «المراح في المزاح» الذي كنا قد اقتبسنا

عنه احدى الفكاهتين أعلاه. ونريد أن نذكر كذلك كاتباً غير مشهور وهو مرعي بن يوسف الكرمي المتوفى عام ١٠٣٣ هـ/ ١٦٢٤ م، صاحب كتاب «غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح» الذي لم ينشر بعد. والكرمي بالذات يستحق أن ننظر في موقفه من المزاح.

فقد استهدف هذا المؤلف في كتابه توضيح الفرق بين المزاح الحلال والمزاح الحرام على صعوبة التمييز بينهما، إلا أنه، لكثرة مواظبته على إيراد شتى المواد الهزلية التي خلفتها الأجيال المختلفة، خرج بكتاب أدبي هزلي رغم ما يبدو من أنّ نواياه الأصلية كانت فقهية. ومع أن الكرمي حذا في ذلك حذو الغزي، إلا أنه تخطاه بشكل بارز وترك لنا كتاباً أدبياً حقيقياً كما يتضح من المخطوطة غير الكاملة لكتابه التي وصلتنا. فلا عجب إذن أن نعثر في مؤلفه على فقرات تشبه، جزئياً، آراء الجاحظ التي سبقت الإشارة إليها، وإن لم يتأثر به بشكل مباشر بل نقل عمن تأثّر به شذرات قد تطوّرت وتغيّرت:

«إن النفس تملّ كما أن البدن يكلّ وكما أن البدن إذا كلّ طلب الراحة كذلك النفس إذا ملّت طلبت الراحة...

إنه لا بأس بالمزح الخالي عن سفساف الأمور وعن مخالطة السفلة وممازحتهم، بل بين الأخوان أهل الصفاء بما لا أذى فيه ولا ضرر ولا غيبة ولا شين... فالعاقل يتوخى بمزحه إحدى حالتين:

إما إيناس المصاحبين والتودّد إلى المخاطبين... وإما أن يزيل بالمزاح ما طرأ عليه من سأم أو حدث به من هم أو غمّ، وقيل للخليل بن أحمد، إنك تمازح الناس، فقال: الناس في سجن ما لم يتمازحوا...

وقد مدح الشعراء اللعب في موضعه كما مدحوا الجد في موضعه. . . إعلم، وفقك الله تعالى، إن المزح إذا خرج إلى حد الخلاعة أو كان مع السفهاء أو ما [=من] لا يشكالك فهو هجنة ومذمة. وكذا إذا كان فيه غيبة أو انتهاك يسقط الحشمة ويقلل الهيبة أو فحش يورث الضغينة ويحرك الحقود الكمينة»(٩٨).

ومع ذلك، فإن المؤلف يورد في باب المزاح الحلال، وكذلك بعد باب ذم المزاح، ملحاً ونوادر يدخل بعضها بلا شك في باب الخلاعة والسخف اللذين ينهى عنهما باب ذم المزاح. . .

إن أغرب ما في الأمر، أو بالأحرى أهم ما فيه، من الناحية الأدبية، هو إكتفاء مؤلفي مجاميع الأدب بسرد شتى التعريفات القديمة للمزاح المباح وعرضها دون أدنى تقييم ودون أدنى تقيّد

---

(٩٨) الكرمي، المخطوطة المذكورة، ورقات ٨٢ ظ ـ ٨٣ ظ، ٨٩ و. وفيما يلي نشير إلى أهم المواضيع عند الغزي، في المصدر المذكور، والكرمي، المخطوطة المذكورة، ليقف القارىء على مدى تأثر الكرمي بالغزي؛ وربما تأثر الكاتبان بمؤلف أقدم سبقهما (وهذا ما نظنّه): الغزي: افتتاح. ص ٨: ذم المزاح ـ أحاديث وأشعار. ص ١١: فضيلة المزاح. ص ١٤: فكاهات النبي ومزاح الصحابة بحضرته. ص ٤٨: من فكاهات الشعبي. ص ٥٠: من فكاهات الأعمش. الكرمي: من ورقة ٨٢ ظ: افتتاح. احتياج الإنسان إلى المزاح. ورقة ٨٣ و: مزاح النبي. أشعار ونوادر. ورقة ٨٤ و: فكاهات النبي ومزاح الصحابة بحضرته. ورقة ٨٥ ظ: الصحابة والتابعون وأشهر علماء الدين. ثم، من جديد، أحاديث عن المزاح بحضرة النبي. ورقة ٨٧ و: من فكاهات الشعبي والأعمش وغيرهما. وفي النهاية: أقوال وأحاديث أخلاقية عن النبي والصحابة. ورقة ٨٩ و: فصل في ذمّ المزاح وفيه أحاديث دينية وأقوال للحكماء. ورقة ٩٠ و: حكايات من مختلف الأزمنة والقرون، من أرفع الأدب المهذب إلى «أسفل» الفكاهات الشعبية كأخبار بهلول وغيره؛ والنوادر المهذبة والقذرة. . .

واضح. فهم لا يتقيدون بهذه النماذج القديمة وفحواها في جمعهم للنوادر الأدبية، سواء في كتبهم التي تحتوي على بعض الفصول المازحة إو في كتبهم المكرسة كلياً للهزل[٩٩]، حيث يسردون نماذج المزاح النبوي وهزل الإشراف وكبار القوم القدماء[١٠٠]؛ ومن هؤلاء من زهد في تعابيره المازحة وتورع عن المبالغة والخشونة فيها وحاذر أن يشتمّ منها سامعها أي أثر لعدم الصدق أخلاقياً. . . ومنهم من عبر عن تفكّهه بمنتهى الصراحة والجرأة. ومع ذلك، لا يلتزم المؤلفون، عندما يوغلون في كتبهم، بكل هذه الإعتبارات والقيود التي فرضت على ظاهرة الهزل. فإذا بهم يخوضون بولع شديد في فكاهاتهم التي لا تقف عند تلك الحواجز ولا ترتدع بها.

وقد يكون من المفيد عقد مقارنة بين طريقة التأليف هذه وبين مبنى المجاميع النثرية والشعرية حول الشراب واللهو ومجالس الأنس. ونقوم بهذه المقارنة رغم البون الشاسع، أخلاقياً، بين مجاميع الهزل (والهزل لا يحرم كلياً وإنما يستقبح قسم منه لدى بعض أهل الورع) وبين المجاميع الحافلة باللهو والشراب (الذي كله حرام نصاً وروحاً). بيد أن المبنى الأدبي في هذين النوعين من المجاميع يتشابه من الناحية التالية:

يشعر مؤلفو المجاميع التي تدور حول الشارب واللهو، أو على

(٩٩) أعلاه ملاحظات ٨٧، ٩١ ـ ٩٥، أكثر من ٤٥ مصدراً وبحثاً.

(١٠٠) ومن بين الكتب والفصول المشار إليها هناك نريد أن نذكر هنا عنوان الفصل المكرس لهذا الموضوع عند ابن حمدون، المخطوطة المذكورة، ورقة ١٠٩ ظ: «في مزح الأشراف والنوادر»، وفيه نوادر من مزاح رسول الله والصحابة الخ.

الأقل قسم منهم، ببعض «المذمة» لخروج كتابتهم عن المسموح والمباح. ولذلك، فإنهم يختمون مؤلفاتهم بفصل عن التوبة والندم وتجنّب الإدمان في الشراب وترك اللهو[١٠١]، أو يوردون فقرات عن تحريم الدين للخوض في مثل تلك الأعمال. وفي بعض الأحيان لا ترد تلك الفقرات في الختام وإنما ترد في ثنايا فصول المجاميع بالذات[١٠٢].

أما نوادر الثقلاء التي تحتلّ حيزاً كبيراً في بحثنا هذا فتمتّ بصلة مباشرة، أو غير مباشرة، إلى كل ما يستنتج من هذا الفصل:

فالثقالة هي من الأخلاق التي تنفر منها أوساط المثقفين «الظرفاء» لأن هذا الخلق يتناقض وآداب السلوك وقواعد الجد والهزل المقبولة في مجالس الأدب الشفهي، أي «محاضرات الأدباء»[١٠٣]، كما كانت تسمى في القرون الوسطى فالإخلال بهذه القواعد والخروج عليها لا يقلان جرأة عن أعمال المضحكين التي وصفناها، والهزل الذي يتولد من أفعال الثقلاء لا يقلّ عنها إمتاعاً وتنفيساً لدى المشتركين في تلك «المحاضرات».

ومن الأعباء المرهقة التي يلقيها المجتمع على كاهل النديم

---

(١٠١) انظر ابن المعتزّ، «فصول التماثيل»، الطبعة المذكورة، ص٥٧، ٩٨؛ وانظر خصوصاً النواجي، المصدر المذكور، ص ٣٧٧ ـ ٣٨٨: «الخاتمة في التوبة والإخلاص».

(١٠٢) مثلاً، الراغب الأصفهاني، المصدر المذكور، ج٢، ص ٦٦٨: تحريم الخمر؛ وتتبع هذه الفقرة فقرات أخرى عن تحليل بعض المشروبات وذمّها ومدحها؛ النويري، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٧٦ ـ ٨٩: تحريم الخمر، آفات الخمر الخ.

(١٠٣) انظر أعلاه، ملاحظة ٤٧.

والمعاشر لأهل القصور، تجنّب الثقالة ومعرفة حدودها، إذ أن الغافل المزدري بجميع آداب السلوك والظرف يصبح «هو والمثقلة الرصاص التي تعدل بها القبة سواء»(١٠٤).

ولا حاجة بنا هنا إلى الإعتماد على علم الإجتماع في سبيل شرح ظاهرة الثقالة بأنها شذوذ عن قيود التصرف المقبولة لدى قسم كبير من طبقات المجتمع. ولذلك فإنها تجلب الضحك أو الإبتسام في مجالس القوم كافة.

وقد يرد قسم من تلك النوادر في نطاق فنّ التواقيع والحكم، علاوة على انتمائه إلى الفنّ الأدبي الهزلي أم فكاهة حيكت على شكل الحكم والتواقيع، كما سنرى في الفصل القادم. فحريّ بمن يتأمل نسيج هذه النصوص المنمقة أن لا يتجاهل الموقف الذي تقفه الثقافة العربية في القرون الوسطى، على مختلف تياراتها الأخلاقية، من قضايا الحرام والحلال في مسالك الهزل. ذلك لأن نمو هذا النوع الأدبي الشبيه بالحكم في ظلّ الثقافة المترددة أخلاقياً بين فروع المزاح المستقبح والمستحسن ربما لا يعود إلى مجرد الصدفة... وقد يكون بمثابة حل فني وإنجاز أدبي نجماً بشكل غير مباشر عن

---

(١٠٤) يشير المسعودي، المصدر المذكور، ج٤، ص ٤٦، إلى احدى الأدوات الثقيلة المستعملة في تلك الفترة، مثقلة الرصاص، وهي رمز لتصرفات الثقلاء ولما لا يليق بتصرفات النديم والمرافق للخلفاء والأمراء... وقارن مع تشبيه الثقيل بالرصاص عند ابن المعتز، «طبقات الشعراء المحدثين»، الطبعة المذكورة، ص ٣٣٥؛ والثعالبي، «ثمار القلوب»، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٦٦٧ ـ ٦٦٨؛ والسيوطي، «اتحاف النبلاء»، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٢٧٧٣، ورقة ٥ و؛ وابن مباركشاه، المخطوطة المذكورة. ورقة ٨٨ ظ. انظر أدناه، ملاحظتين ١٤٣، ٢٢٠.

ذلك التردد. ومن الممكن أن نقارن بين تبلور مثل هذا الأدب الهزلي المنّق وبين تكوّن اللؤلؤة في بطن صدفتها؛ فاللؤلؤة لا تتكوّن إلاّ بعد ما تخالط الصدفة بعض الموادّ الدخيلة الخشنة كذرة صغيرة من ذرات الرمل البحري؛ فيقهر الحيوان الرخو في بطن الصدفة خشونة تلك الذرة بتكوينه اللؤلؤة حولها.

وبنفس الطريقة قهر الأدب العربي الهزلي خشونة القيود الأخلاقية التي فرضها عليه المجتمع، وخلق زخارف لغوية وحكماً منمقة. وإذا أردنا الدقة فإننا نجد طريقتين استخدمتا للتغلب على هذه القيود: الطريقة الأولى ـ خلق تلك الزخارف، والثانية ـ غض النظر عن القيود كلياً كما قد اتضح لدينا أعلاه. أما نوادر الثقلاء فتستعمل بها الطريقة الأولى أكثر من الثانية.

الفصل الثالث

نوادر الثقلاء

كيفية نموّ هذا النوع الأدبي المتطوّر

١. المبالغة كأحد عناصر الهزل

لا يخفى على أحد الفرق بين المزاح الذي يستغل الصفات الجسدية وما فيها من عيوب، والمزاح الذي يقوم على تقصيّ الهفوات الأخلاقية في الإنسان. وقد تطرقنا إلى كنه المواد الهزلية المعتمدة على العيوب الجسدية والعاهات وكيفية صياغتها في قالب أدبي متطور. فإذا كانت هذه العملية جائزة في تلك الصفات الحسيّة، فإنها تبدو مستساغة إلى حدّ أبعد في الحالات التي تذكر فيها المزايا الأخلاقية والنفسية؛ إذ لا يختلف إثنان في أن إنشاء نادرة على حساب أعمى مثلاً، أصعب أخلاقياً وأدبياً من وضع نادرة على حساب بخيل أو ثقيل.

وقد وقف الأديب عبد القادر المغربي(١٠٥)، وهو أول من بحث موضوع نوادر الثقلاء، على وجه الشبه الشديد بين نوادر البخلاء ونوادر الثقلاء التي نحن بصددها.

إن اعتماد الكاتب على الاغراب والمبالغة في خلقه للمادة الهزلية، ضمن هذا النوع الأدبي، لمن الأمور المعروفة والمسلم بها

---

(١٠٥) المغربي، «الثقالة والثقلاء»، ضمن «مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق»، ج ١٢، ١٩٣٢، ص ٤٤٩ ـ ٤٦٩.

عامة. إلاّ أنّه من الصعب إظهار كل مبالغة للقارئ و«قياسها» بشكل واضح وجلي. وفيما يلي نوضّح كنه هذه الظاهرة الأدبية:

أولاً: ـ كان بالإمكان أن نفترض أن بعض نوادر البخلاء مستمدة من الحياة الواقعية بحذافيرها، ولكن مثل هذه النظرة فيها ولا شك شيء من المبالغة في تقييم مدى الواقعية الاجتماعية الكامنة في الأدب. وبالفعل فإنه من المتعذر علينا أن نحدد إلى أي مدى يصل الشحيح في شحّه في الواقع، وأين تبدأ المبالغات التي تعود إلى واضع النادرة. بيد أنه يسهل على الباحث، بل على القارئ أيضاً، الوقوف على المبالغة في نوادر الأكلة(١٠٦).

فالأدب يصف هؤلاء وكأنهم يلتهمون من اللحوم والخضار

(١٠٦) انظر أعلاه، ملاحظة ٤٥. ونجد بعض هذه المواد في فصول مستقلة. ولكن في بعض الأحيان ترد نوادر الأكلة في الفصول المكرسة للبخلاء أو فصول نوادر الطفيليين، وذلك لأن هناك علاقة بين موضوع البخل والشحّ وموضوع الأكل والطعام وكذلك بين أخبار التطفيل والنوادر عن النهم وأخبار الأكلة. ونشير مثلاً إلى الكتب والمجاميع الأدبية التالية: ابن قتيبة، المصدر المذكور، ج ٣، من ص ٢٢٤؛ ابن عبد ربّه، المصدر المذكور، ج ٦، من ص ٢٩٨؛ الأبي، «نثر الدر»، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٣١٨٠، من ورقة ١٧٨ ظ: المؤاكلة والتطفيل؛ الراغب الأصفهاني، «محاضرات الأدباء»، الطبعة المذكورة، ج ٢، ص ٦٢٩: الأكلة والطفيليون؛ النويري، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٣٤٣: الأكلة؛ الحجازي الخزرجي، «روض الآداب»، مخطوطة المتحف البريطاني، ٤٨٩، ١٩ ـ Add، من ورقة ١٩٦ ظ ومخطوطة دار الكتب، ١٤٣٧، أدب، من ورقة ٢٨٨ و: الطفيليون والأكلة؛ مؤلف مجهول، «المختار من نوادر الأخبار»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي ٣٤٩١، من ورقة ١٧١ و: الأكلة. وراجع بهيج شعبان، «أثر المعدة في الأدب العربي»، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٣٧ ـ ١٧٥.

والفاكهة كميات هائلة هي أضعاف أضعاف ما تسعه معدة الإنسان. وهذا النوع من المبالغة في وصف الازدراد والابتلاع شائع في الأدب العالمي(١٠٧). ويتجلى من خلال تلك النوادر الحدّ الفاصل بين الواقعية والمبالغة، الحدّ الذي لا يتضح بسهولة في نوادر البخلاء وأغلب أصناف النوادر الأخرى.

ثانياً: ـ لا نتعدى الحقيقة إذا فرضنا أن الجاحظ صاحب القصص عن البخلاء، وهي أول إنتاج وصلنا من هذا النوع، سلك في حياته اليومية وفي تدبير شؤونه المالية طريق التوسط في الأمور. ويبرز ذلك أيضاً بكل وضوح في بعض مبادئ فلسفته الأخلاقية(١٠٨)؛ وهذا مسلك امتاز به أهل الحضر، لأن الحضري لا يعوّد نفسه على إعطاء كل ما يملكه لمجرد اكتساب الصيت والسمعة الطيبة ولا يحذو حذو كرام أهل الوبر الذين ينحرون قطيعهم كله في سبيل تلك السمعة. ولا نجد المبالغة في العطاء عند الحضريين إلا لأسباب دينية من زهد ومعروف. لكن الجاحظ، في خلقه الأدبي،

---

(١٠٧) ومن ذلك نهم «غاراغانتوا» (Garagantua)، كما وصفه «رابليه» (François Rabelais)؛ وكذلك عن البطل الشعبي «تيل اويلنشبيغل» (Till Eulenspiegel)؛ وكذلك نجد وصفاً للنهم ضمن مغامرات «غوليفر» [أي جليفر (Gulliver)] التي ألّفها «سويفت» (J. Swift). ومن الجدير بالذكر أن العالم الأوروبي في القرون الوسطى اعتبر النهم من «الخطايا» (vices) السبع ووصفه في فنّه التشكيلي بصورة مضحكة من ناحية ما، علاوة على ما وصفه في أدبه.

(١٠٨) انظر مثلاً: I. Geries, *Un genre littéraire arabe*, Paris, 1977, p. 55 ونضيف إلى ذلك أن التفكير الإسلامي يعتبر مبدأ «خير الأمور أوساطها» من أقدم المبادىء الإسلامية وأرسخها، ابتداءً بالقرآن الكريم، وانظر السيوطي، «الإتقان في علوم القرآن»، القاهرة، ١٩٣٥، ج ٢، ص ١٣٢.

يحتفظ بذكريات الماضي الصحراوي الجاهلي الذي فرض على الأثرياء من أهل الوبر أن يقدموا كل ما لديهم ويوزّعوه التماساً لصفة الأجواد الكرام. فهذه السمعة الطيبة هي ما يكافئ به المجتمع البدويّ من أحسن إليه في ساعة الشدة وأوقات القحط. في مثل تلك الأوقات العصيبة يجدر بالأثرياء أن يتنافسوا في «المعاقرة»، بمعنى المباراة في عقر الإبل، وما نحوها، فإن تصرف أحد الحضريين تصرفاتهم هذه وأتلف كل ما عنده اعتبر ذلك حماقة منه وطيشاً. ويستغل الجاحظ هذا الفرق الواضح بين المفاهيم والقيم الجاهلية من ناحية، وبين المفاهيم والقيم الحضرية من ناحية أخرى لإثارة الضحك. فالجاحظ الذي يستند، في هذا الفرع من فروع الأدب، إلى مجموعة قيم لا يخضع لها في حياته اليومية، يهاجم بعض أفراد مجتمعه الحضري. وربما لا يحمل عليهم لأنهم لا يخضعون إلى هذه القيم البدوية وإنما لإستهزائهم بها وتفضيلهم القيم الحضرية ذات الأصل الفارسي(١٠٩). والجاحظ يتخذ هذا الموقف ليردّ على مظاهر «الشعوبية» وليظهر أنه، في حياته الروحية الأدبية، لم يزل يؤثر التراث العربي العريق، بكل ما فيه من أخلاق ومفاهيم، على التراث الفارسي الحضري الذي اعتمده ابن المقفع مثلاً في حديثه

(١٠٩) شارل بلات، «الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء»، دمشق، ١٩٦١، ص ٣٤٦؛ وقارن مع كتابه «أصالة الجاحظ» المذكور، ص ١٩ ـ ٢٠؛ طه الحاجري، في مقدمته للجاحظ، «البخلاء»، الطبعة المذكورة، ص ٢٩؛ وديعة النجم «الجاحظ والحاضرة العباسية»، بغداد، ١٩٦٥، ص ١٤٧ ـ ١٩٩؛ محمد عويس، «المجتمع العباسي»، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

عن البخل والجود[110]. والقائمة الآتية هي رسم توضيحيّ لهذا التضارب في القيم يتجلى للقارئ من خلاله «سلّم» القيم المألوف في تفكير الإنسان الحضري وفلسفته. وقد عبّر عن هذا «السلم» ابن المقفع، بكل وضوح، إلاّ أنه لجأ إلى تقسيمه إلى أربعة أقسام: إسراف، جود، اقتصاد، بخل - في حين من المعهود عند المفكرين والمؤلفين الذين يحثّون قراءهم على اتخاذ الطريق الوسطى أن يقسّموا «السلم» إلى ثلاثة، مثلاً: الغضب من جهة والمبالغة في التسامح من الجهة الأخرى، وفيما بينهما المزاج المعتدل. ولكن الجاحظ، في «كتاب البخلاء»، بنى تحديداته للبخل على أساس آخر، وذلك حسب تفكير العرب القدماء كما سنوضحه أدناه. وقد عرف العرب الأوائل كنه الحلم والإعتدال في كثير من المواضيع، غير أنهم لم يطبّقوه في موضوع الجود والبخل. وكانوا يصفون بالسخاء من تصدّق بماله كله أو بملكه كله ولم يصفوا بذلك غيره. لذا نجد بين «المقتصدين»، حسب التحديد الفارسي، من يغضب عندما يسمع أنه يُعتبر «بخيلاً»، حسب المفاهيم العربية الأصلية. وسنتطرق إلى ذكر ردّ الفعل هذا بعد الرسم التوضيحي التالي. وعلى كل حال، ليس الفرق بين شتى المفاهيم والتحديدات «للبخل» إلا بمثابة «انحراف» مقصود أو اختلاف في تحديد موضع نقطة الاعتدال:

---

(١١٠) ابن المقفع، «الأدب الصغير»، ضمن «آثار ابن المقفع»، بيروت، ١٩٦٦، ص ٣٣٦ - ٣٣٧؛ وعلى حد قول المستشرقين نسبت له هذه الرسالة وليس هو مؤلفها الحقيقي، إلاّ أنها من نفس الفترة وتعكس نفس الروح. وقارن كذلك مع ص ٣٢٩ من نفس الرسالة، وكذلك ص ٣٠٣ وهي من رسالة «الأدب الكبير» التي لا شك أنه مؤلفها.

«الأدب الصغير» المنسوب لابن المقفع:

إسراف ــــ جود ــــ [نقطة الاعتدال] ــــ اقتصاد ــــ بخل

«كتاب البخلاء» للجاحظ:

جود ــــ [نقطة الاعتدال] ــــــــــــــ بخل

ومما يؤكد وجود مقاييس الجاحظ هذه ضمن «كتاب البخلاء» هو أن ما يعتبره بعض البخلاء مجرد اقتصاد وحسن تدبير(١١١) ليس إلا بخلاً بالنسبة للجاحظ، وذلك هو أيضاً الشعور الذي ينتاب قُراءه. إننا نستنتج من جهة أخرى أن مكان المزية الممدوحة يختلف بعض الاختلاف في كلا السلمين من القيم المذكورة.

أمّا نوادر الثقلاء، فإنها تشبه إلى حدّ ما نوادر البخلاء، إلا أن روح الهزل فيها لا تنبع، في أغلب الأحيان، من تضارب القيم العربية العريقة الجاهلية وتناقضها مع القيم الحضارية الفارسية، وإنما تنجم عن تناقض آخر. فمجالس أهل الأدب والظرف تخضع لقيود صارمة، سواء في التصرف أو في تبادل أطراف الحديث، وهي قيود استقتها بيئة القصور ومنازل الأثرياء العباسيين من التراث الفارسي، فكل خروج عن تلك القيود يؤدي إلى المفارقة وبالتالي إلى الضحك، كما سبق أن بيّنّا في الفصل السابق. فالثقيل، بتصرفاته الشاذة عن قواعد تبادل أطراف الحديث، وإن لم يكن ذلك عن قصد وتصميم، يشكّل هدفاً لسخط الحاضرين من جهة، ولكن من جهة أخرى، فإنه يمثل مصدر ضحك للجميع: فهو ثقيل يضايق

---

(١١١) الجاحظ، «البخلاء»، الطبعة المذكورة، ص ١، ٦٥.

الحاضرين ويريحهم في نفس الوقت، وبالتالي فهو مصدر إلهام للأدب الشفهي والمكتوب بكلّ ما فيهما من نوادر ونكت.

٢. نوادر الثقلاء ـ القيمة الجمالية

بلغت صياغة نوادر الثقلاء الفنية قمة التطور الأدبي، وإن لم تكن النوع الوحيد من أنواع النوادر التي حظيت بصياغة رائعة. وربما استطاع القارئ أن يقف، من خلال بحثنا هذا، على مراحل شتى لتطور النوادر الأدبية؛ وذلك انطلاقاً من الهزل «البدائي» الساذج الذي يعتمد على السخرية من العاهات وما إليها والذي قد يتمتع هو أيضاً، بتنميق أدبي متطور، وحتى المزاح على حساب مزايا الإنسان النفسية والأخلاقية والذي يعتمد، كما رأينا، تارةً على المبالغة، وطوراً على التضارب بين القيم والمفاهيم؛ ويلجأ أحياناً إلى التوشيح بالأشعار والترصيع بالقطع النثرية الجميلة والاقتباس من مصادر العلم والأدب.

والقارئ اللبيب الذي يتمعن في بعض نوادر الثقلاء، سرعان ما يجد نفسه يواجه التساؤل التالي: هل المادة التي يطالعها لا تتعدى في أصلها الحكم والتواقيع المتخفية تحت ستار من المزاح، أم هي نوادر هزلية ترتدي لباساً مثقلاً بالزخرف والبديع؟ وفي كلتا الحالتين يتجلى، من خلال هذه النوادر، مزج أصيل بين الهزل والزخارف اللفظية، وقد يكمن في هذا التركيب سر من أسرار نجاح الأدب العربي وكنه تفوقه.

علينا أن نلفت النظر بادئ الأمر إلى ورود بعض الفصول عن الثقلاء ومزاياهم في كتب استهدف مؤلفوها تأديب موظفي الجهاز

الإداري وشتى المثقفين وتدريبهم على فن المراسلة. ألم يخصص بعض هؤلاء الأدباء (أمثال الثعالبي، في كتاب «سحر البلاغة» وغيره من كتبه، والراغب الأصفهاني في «مجمع البلاغة»...) فصلاً لكل موضوع يحتاج إليه المراسل؟ إذن، فالموظف والمثقف اللذان يريدان تنميق الرسائل وتوشيحها يلجآن إلى اقتباس العبارات الواردة في الفصول الخاصة. ومن جملة هذه الفصول فصل عن الثقلاء، وذلك لأهمية هذا الموضوع في المراسلات والمحادثات الهزلية والتي تحمل طابع الطعن والهجاء[١١٢].

لن نتتبع هنا كل مراحل تطور النثر الفني ومجالات استعماله[١١٣]، وإنما نكتفي، توخياً للإختصار، بإيراد ما قاله بعض الموظفين، وكان بعيداً كل البعد عن ديوان الرسائل وشَغَل، فيما يبدو، المناصب التابعة للدواوين الاقتصادية مثل ديوان الخراج، في بغداد في بداية القرن الرابع الهجري، منتصف القرن العاشر الميلادي[١١٤]. وابتعاد هذا المؤلف المجهول عن المراسلة وأساليبها الفنية والتغييرات التي طرأت عليها هو الذي جعله ينظر إلى تطور هذا الفن نظرة ناقدة تتميز بالموضوعية:

«وصاحب ديوان الرسائل يحتاج أن يكون حسن العقل حسن الهيئة شديد التمييز درّاساً للكتب حافظاً للرسائل والخطب وفقر

---

(١١٢) الثعالبي، «سحر البلاغة»، الطبعة المذكورة، ص ٧٤ ـ ٧٥؛ الراغب الأصفهاني، «مجمع البلاغة»، مخطوطة طوبقبو، أحمد، ٢٣٩٠، ورقة ١٠٥ و.

(١١٣) زكي مبارك، البحث المذكور.

(١١٤) انظر كتابنا *Nouvelle source sur l'époque bûyide*, Tel Aviv, 1980 pp. 6 - 7 (ضمن السلسلة *Hadara* أي: حضارة).

الأشعار ونوادر الأخبار، عالماً بالنحو حاذقاً بتصرفات الألفاظ جيد القريحة، به صحة من كِبْر. وأصل كتابتهم السرقة؛ كانت أوائلهم تسرق من الخطب والمقامات والأشعار وألفاظ الأعراب وما قدروا عليه من كتب الناس. ثم جاءت طبقة في الدولة الهاشمية [أي: العباسية] فسرقوا من رسائل بني أمية وكتب كتابهم. ثم جاءت طبقة ثالثة سرقت من الفريقين جميعاً وحلت ذلك بألفاظ يسيرة ومعاني [ومعانٍ] نزرة، ثم نحن في طبقة تنسخ الكتب نسخاً وتهذُّها [والمعنى: تقطعها أو تسردها، وربما الصحيح: تهذبها] هذا، فإن رامت الزيادة والنقصان أفسدتها إلا نفر يسير من خاصة الكتّاب، والقدر نزر»(١١٥).

أما تركيب نوادر الثقلاء ونوعية مادتها الأدبية فإنهما لا يختلفان عما هو مألوف في الأدب العربي عامّة: فثمة نصوص هزلية إلى جانب زخارف نثرية، تتخللها بين الفينة والفينة مقطوعات شعرية ساخرة تتبعها مواد صيغت بأسلوب مأخوذ من أساليب الكتابة الدينية كالتفسير والحديث، وذلك في إطار يندمج فيه الجد بالهزل.

ولعل أقرب الأنواع الأدبية من نوادر الثقلاء هو النوع الذي عرف بإسم «الجوابات المسكتة» أو «الجوابات الدامغة»، وكان له بعض الرواج في أدب القرون الوسطى(١١٦). ويعتمد هذا الفن فيما

---

(١١٥) نفس المصدر، ص ٦٨.

(١١٦) هناك كتاب كرّسه ابن أبي عون لهذا الموضوع، «كتاب الأجوبة المسكتة»، مخطوطة بايزيد، عُم ـ ٥٤٦٠، أما عن الفقرات والفصول التي ترد فيها الأجوبة المسكتة فانظر مثلاً المصادر التالية حسب الترتيب الزمني: الجاحظ، «الحيوان»، الطبعة المذكورة، ج٣، من ص ٧؛ ابن عبد ربه، «العقد»، الطبعة المذكورة، ج٤، ص ٣ ـ ٥٦؛ الوشاء، «الفاضل» =

. . . .

= مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي ٦٤٩٩، ورقات ١٠٥ و ـ ١٠٦ و: حسن المعارضات في الجواب؛ وقارن مع «الفاضل»، لمؤلف مجهول (الوشاء؟)، مخطوطة دار الكتب، ٢٣ ش، أدب، ورقة ٤٨ ظ: باب البلاغة والإعراب في حسن سرعة الجواب؛ التوحيدي، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٨، ٢٧٧، ج٢، ص٥٨٧؛ ولنفس المؤلف، «زهر الآداب»، الطبعة المذكورة، ص ٨٤٢ ـ ٨٤٣؛ الأبي «نثر الدر»، مخطوطة كوبريلي، ١٤٠٣، من ورقة ٩٧ و، ومخطوطة دار الكتب، ٣٢٦، أدب، من ورقة ٣٢ و: الجوابات المستحسنة جداً وهزلاً؛ نفس المصدر في مخطوطة رئيس الكتّاب، ٧١٩، من ورقة ١٢ ظ، ومخطوطة دار الكتب، ٣٢٧، أدب، من ورقة ٩١ و: نكت من كلام سائر النساء ومستحسن جواباتهن؛ ابن حمدون، «التذكرة»، مخطوطة راغب باشا ١٠٨٥، ورقات ١٥١ ظ ـ ١٩٩ و: الباب الثالث والثلاثون في الحجج البالغة والأجوبة الدامغة؛ ابن عبد البرّ النمري، «بهجة المجالس»، القاهرة، ١٩٦٢، ج١، ص٩٤ ـ ١٠٨؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار»، وقد نشر الفصل عن الأجوبة في الجزء المطبوع، بغداد، ١٩٧٦، من ص ٦٦٢، و «روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار»، القاهرة، ١٢٨٠ هـ، من ص ١١٦: في الجوابات المسكتة؛ شهاب الدين الحجازي الخزرجي، «روض الآداب»، مخطوطة دار الكتب، ١٤٣٧، أدب، ورقة ٣٢٠ ظ: الأذكياء والبلغاء دوي الأجوبة المسكتة؛ علي بن ظافر الأزدي، «بدائع البدائه»، القاهرة، ١٢٧٨ هـ، ص ٦: الباب الأول في بدائع بدائه الأجوبة؛ ابن العربي، «محاضرات الأبرار»، القاهرة، ١٩٢٠، ج٢، ص٢٨: حسن الجواب؛ ابن عاصم القيسي «حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والمضحكات الخ»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي ٣١٧٨ من ورقة ٣ و، ومخطوطة دار الكتب، ١٨٣٣، أدب، ورقة ٣ ظ: مسكت الجواب، ونفس المخطوطة، ورقة ٧ ظ: الأجوبة التي هي عن ذكاء قائلها معربة: عبد الحاج القرطبي، «نزهة الألباب الجامعة»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٢٦، من ورقة ١٠٨، ومخطوطة دار الكتب، ١٣١٧، أدب، ورقة ٨٣ و: باب الأجوبة المستملحة؛ مؤلف مجهول، =

يعتمد على الإرتجال وسرعة البديهة. ورغم أنه لا ينتمي إلى الأدب الهازل في ماهيته، إلا أنه يذكر القارئ بالجوابات التي يواجه بها المثقفون كل ثقيل «ابرمهم» (على حدّ قول النصوص القديمة: أي كاد أن يميتهم مللاً. . .) بغية إقصائه عن مجالسهم. وتشبه «الجوابات» المذكورة الملح التي تبلورت في مجالس الظرفاء خلال مكوث الثقلاء المعاندين في بيوت من لا يرغبون في الإصغاء إليهم

= «ترويح الأرواح»، باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٢٧، ورقة ٦٩ ظ: في الجوابات الحاضرة؛ ابن أبي بكر السيوطي، «رياض الألباب»، مخطوطة نفس المكتبة والقسم، ٣٤١٩، من ورقة ١٠٤ و: الأجوبة المستحسنة والمسكتة؛ الأبشيهي، المصدر المذكور، ج١، ص ٥٧ ـ ٥٩؛ مؤلف مجهول، «المختار من نوادر الأخبار»، مخطوطة نفس المكتبة، نفس القسم، ٣٤٩١، ورقة ٣ و: نجابة الأبناء وحسن أجوبة الأذكياء، وورقات ٨١ ظ ـ ٨٤ و: سرعة أجوبة الأذكياء، وفي مخطوطة دار الكتب، ٣٦٩، أدب، نفس الفصلين في ورقة ٢ ظ، ٦٥ ظ؛ الميلوي، زرحلة الغريب»، مخطوطة طوبقبو، أحمد، ٢٤٠١، ورقة ٢٨ و؛ الستيوي، «زبد الأدباء»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٧٩، من ورقة ٩٦ و: الباب الرابع في الفطنة والذكاء والفراسة والفصاحة والأجوبة المسكتة وسرعتها؛ مؤلف مجهول، «الروض الناضر»، باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٨١، ورقة ٣ و: الأجوبة المسكتة؛ محمد بن عبدالله الهندي، «مبهج النفوس»، مخطوطة كمبريدج، ١٩١ ـ Add، ورقة ٧ ظ: نوادر الأجوبة؛ مؤلف مجهول، «مضحك العبوس، مخطوطة دار الكتب، ١٥٠٢، أدب، ورقة ١٢٢: الأجوبة المسكتة؛ مؤلف مجهول، «في بيان المستطرف والمستظرف». مخطوطة أكسفورد وينفلد، ٥٠، ورقة ٨١ ظ: في الأجوبة المسكتة؛ مؤلف مجهول، «نزهة الأدباء»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١٣٥٧، ورقة ٦٨ و: «الجواب الحاضر»؛ مؤلف مجهول، «حلية الأدب»، كمبريدج، ٤٧ ـ Qq: باب الأجوبة الحاضرة المسكتة؛ وانظر كذلك: - M. Bergé, *op.cit.*, p. 56 إذن، أمامنا نوع أدبي متطور مهمّ!

ومن يتقززون من خروجهم عن آداب السلوك بكلّ ما فيها من أناقة ولباقة والتزام بقواعد تناول أطراف الحديث.

وإذا أخذنا بعين الإعتبار أسماء الرواة الذين تنسب إليهم نوادر الثقلاء وترد على ألسنتهم، وهم من رجال الدين والعلم والطب والفلسفة والسياسة والشعر المشهورين، اتضح لنا وجود عنصر آخر من العناصر التي اضفت على هذه النوادر صفة النصوص الأدبية الثقافية الحقيقية وهو مزج المستويات بعضها ببعض.

ولعل أفضل وسيلة للكشف عن ثراء الأسلوب الذي صيغت به نوادر الثقلاء هي النظر في ماهية التشبيهات التي اعتمدها مبدعو هذه النوادر عند وصفهم للثقيل. فموضوع تلك التشبيهات مستمد في معظم الحالات من عالم المرئيات وعالم المحسوسات، فتارة يلجأون إلى استخدام نعوت الجماد أو المخلوقات الثقيلة أو الذميمة، خلال وصفهم للثقالة وأصحابها، وطوراً يلجأون إلى أداة حادة شديدة الوخز، وتارة أخرى إلى شتى الأمراض وأنواع المعاناة. وقلما استمدوا التشبيهات من عالم المسموعات، على الرغم من أن الثقيل يثقل، بالتأكيد، بصوته وحديثه. وهذا شيء له ما يبرره: إذ أنه يبدو لمن يثقل عليه الثقيل أن مجرد منظره ووجوده الحسي، كما يدركهما، وهو يستمع إليه، هما اللذان يرهقانه... وهكذا يظهر كأنما اشتقت صور التعبير عن التبرم عند من يثقل عليه صوت الثقيل من عالم المرئيات، ففي طور الإخراج الأدبي حدث انتقال من حسّ إلى آخر. وعلاوة على ذلك فإن ميل الأدب العربي إلى التلاعب بالألفاظ المتقاربة معنى أو اشتقاقاً، يفتح أمام الكتّاب الذين يتحدثون عن الثقالة والثقلاء مجالاً واسعاً لخلط كل مدلولات «الثقيل» بعضها

ببعض: الثقيل جسماً كالحيوان الكبير، والثقيل حجماً وقساوةً كالجبل والصخر، والثقيل وزناً كالحمل، إلى جانب الثقيل ظلاً وتصرفاً؛ وقد يكون أيسر للإنسان أن يعتمد على تشبيهات من عالم المرئيات. وبما أن الأدب العربي يمتاز بمستواه الزخرفي المرتفع فإنه ليس غريباً أن يكون أكثر تناولاً وتطرقاً لذلك المجال.

(حذفنا هنا رسماً بيانياً، اشتملت عليه طبعة ١٩٨٣، يشرح تشبيهات «الثقلاء»[١١٧] بشتى الأغراض والأشياء والحالات: الأرض، أو الجبال، والحجر والصخر، والرحى، والرصاص، وصنجة الميزان - من جهة - والمرض ومرض الروح، أو الحمّى والوخزة في العين أو الفؤاد، والشوك في القدم، والضغط على الكبد، وغصة الصدر، وغصص الموت وتشبيهات كثيرة تجري نفس المجرى - من الجهة الأخرى؛ وخصوصاً الكناية الهزلية: «خفيف على القلب»[١١٨] التي لا تعني أن الثقيل يسهُل «حمله» على الفؤاد

(١١٧) فكل هذه التعابير مأخوذة من النصوص الواردة أدناه، ص؟؟؟؟؟؟ ومن حواشيها، أي مما أورده شعراء مثل الأخطل، وبشار بن برد، وأبي نواس، وابن الرومي، وغيرهم، وكذلك مؤلفو مجاميع أدبية مثل: ابن قتيبة، وابن المرزبان، وابن عبد ربّه، والبيهقي، والرقيق القيرواني، وأبي المطهّر الأزدي، وأبي هلال العسكري، والبستي، والحصري، والابي، والثعالبي، وابن حمدون، وابن عبد البرّ النمري، والميداني، والراغب الاصفهاني، والزمخشري، وابن الجوزي، والمعري الشافعي، والارموي، والسيوطي، والميلوي، والحفناوي البساري، والأنصاري الخزرجي، وغيرهم وكذلك عدة من المؤلفين المجهولين ممن وردتنا مخطوطاتهم.

(١١٨) أمامنا كناية معناها: ثقيل، لأن الكلمة القلب ليس معناها هنا: الفؤاد ولكن معناها: عكس. أي: فلان عكس خفيف، معناه أنه ثقيل. انظر الثعالبي، «الكناية والتعريض»، الطبعة المذكورة، ص ٣٣.

وإنما «قلب» هنا بمعنى «عكس»، أي معنىً «مقلوب»؛ ثم يتطرق الرسم البياني إلى مقارنة المرئيات بالسمعيات من خلال تلك التشبيهات ويشرح ماهية الانتقال مما نسمعه: ثرثرة الثقيل وصوته، إلى ما نراه)

٣. نوادر الثقلاء وأقدّم مجاميعها

تمتاز بعض النوادر التي نحن بصدد نشرها ودراستها، في هذا الكتاب، بظاهرة تلفت النظر: فلقد أُسندت بعض هذه النوادر إلى الرسول والصحابة؛ وتلفت النظر على الأخص النوادر التي تتخذ شكل التفسير وشرح «أسباب التنزيل» لإحدى الآيات القرآنية. فيذكر الشرح أن سبب نزول الآية هو أن بعض الأشخاص دُعوا ليأكلوا في بيت رسول الله في حفل زفاف زينب إليه، وطال جلوسهم وكان في سلوكهم ما ضايقه، فنزلت الآية «فإذا طعمتم فانتشروا»[١١٩]. وفي الأصل، لا يختلف هذا التفسير، من ناحية طبيعته الجدية، عن أي

(١١٩) القرآن الكريم، سورة الأحزاب، آية ٥٣، وهي آية الحجاب. ومن المفسّرين من يذكر الثقالة والثقلاء بشكل مباشر ومن يلمح إلى ذلك تلميحاً... وانظر: الطبري، «جامع البيان»، بيروت، ١٩٦١، ج ٢١ ـ ٢٢، من ص ١٥٨؛ الزمخشري، «الكشاف»، القاهرة، ١٩٢٥، ج ٢، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١؛ ابن الجوزي، «زاد المسير»، دمشق وبيروت، ١٩٦٥، ج ٦، ص ٤١٣، ٤١٥؛ الرازي، «التفسير الكبير»، القاهرة، ١٩٣٨، ج ٢٥، ص ٢٢٥؛ القرطبي، «الجامع لأحكام القرآن»، القاهرة، ١٩٦٧، ج ١٤، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤؛ ابن كثير، «تفسير»، بيروت، ١٩٦٦، ج ٥، من ص ٤٨٩، ويورد ابن كثير كل الأحاديث في أسباب نزول هذه الآية، مما ورد عند البخاري في صحيحه وعند غيره. ويتكرر ذلك في كتب الأدب، فانظر أدناه ملاحظة ١٩٨.

تفسير آخر ووصف لأسباب النزول. إلا أن اقتباسه فيما بعد، في فصول نوادر الثقلاء[١٢٠]، هو الذي يخرجه عن طبيعته الجدية ويدخله في إطار هازل يبعث على الضحك نوعاً ما. ومن النوادر الواردة على لسان الصحابة والمؤمنين الأوائل ومن تبعهم، ما يأتي على شكل أحاديث مرفقة بأسانيد في بعض الكتب، بينما حذفت هذه الأسانيد في كتب أخرى. ومن يدري إن كانت هذه النوادر تعود كلها بالفعل إلى تلك الفترة الزمنية؟ وإذا كانت لها جذور قديمة فعلاً، فهل يتبقى مغزاها الأصلي عند إيرادها في كتب الهزل بين النوادر[١٢١]؟ فهذه المجاميع الأدبية تختلف في أسلوبها وطبيعتها عن الكتابات الدينية التي تتأثر بأساليب علماء الدين وخبراء «الجرح والتعديل» في علم الإسناد. فليس من النادر أن تطالعنا في بعض كتب الأدب أقوال قد نسبت إلى قائليها دون التحقق من «صحة» الإسناد والمتن. ومع ذلك، فإن بعض جامعي هذه النوادر هم من المتبحرين في علوم الدين. أمثال جلال الدين السيوطي الذي يبرز علمه ودقة كتابته حتى في مؤلفاته الأدبية. واختلف جامعو نوادر الثقلاء، على مختلف أنواعها، في نسبة بعضها إلى شخصيات عباسية مشهورة كنسبة نادرة إلى بشار بن برد بينما تسند أيضاً إلى الأعمش وغيره، وإسناد قول عن الثقالة إلى بعض الخلفاء العباسيين وفي نفس الوقت إلى طبيب مشهور وإلى ملوك عاشوا قبل الإسلام...[١٢٢]. فإذا كان هؤلاء الأدباء الذين جمعوا شتى المواد

---

(١٢٠) انظر أدناه، ص ١١١، ١٢٩ ـ ١٣٠ (وقارن مع ص ١٤٦، سطر ١٦).

(١٢١) باستثناء ابن المرزبان الذي جمع في كتابه إلى جانب الفكاهات والنوادر موادّ ذات طابع ديني وأخلاقي، أدناه، ص ١١١ ـ ١١٧.

(١٢٢) انظر أدناه، ص ١٢٢، ١٣٣، والملاحظتين ١٧٥، ٢٠٨.

الهزلية قد اختلفوا في إسناد النوادر إلى من كان أقرب إليهم في الزمان، فكيف بمن يجمع النوادر المسندة إلى السلف الأول الذي تفصله عنهم قرون عديدة؟

وعلى كل حال، فإنه لا يخلو أي جيل من التندّر بموضوع الثقالة والثقلاء. ولا شك أن من عاصر الخلفاء الراشدين أو الدولة الأموية عرف بعض النوادر والنكات التي قيلت «على حساب الثقلاء»، غير أنه من العسير القطع بأن ما ينسب منها إلى بعض شخصيات ذلك العهد قد جاءَ فعلاً على ألسنتهم وبنفس الشكل والأسلوب. أما الشخصيات المذكورة في هذه النوادر، أو «أصحابها» كالأعمش والشعبي، اللذين عُرفا بميلهما إلى المزاح والهزل، فينتميان إلى جماعة من العلماء المرموقين ممن تنسب إليهم مواد هزلية شتى في الأدب العربي(١٢٣). فالإمام أبو حنيفة مثلاً، الذي عاش في بداية الدولة العباسية تعتبره بعض النصوص ثقيلاً من ثقلاء هذه الفترة، بينما تنفي ذلك نصوص أخرى تتحدث عن توبيخه للثقلاء وضحكه منهم وعن ميله إلى السكوت(١٢٤).

---

(١٢٣) انظر مثلاً ما ورد أعلاه، ملاحظة ٩٨، عن الشعبي والأعمش، وانظر كذلك المغربي، الدراسة المذكورة، ص ٤٦٠؛ الحوفي، البحث المذكور، ص ١٨.

(١٢٤) انظر ابن قتيبة، المصدر المذكور، ج ١، ص ٣٠٩، حيث ترد أبيات شعر ضد الثقلاء على لسان أحد جلساء الإمام أبي حنيفة. أما عند ابن عبد ربّه، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٩٧ فترد هذه الأبيات على لسان الأعمش. وفيما بعدها نادرة تقول إن أبا حنيفة كان ثقيلاً بالفعل! وكذا يقال عنه عند البيهقي، «المحاسن والمساوئ»، بيروت، ١٩٦٠، ص ٥٨٩؛ ولكن الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة آيا صوفيا، ٣٩٨٤/O، ورقة ١٥٧ و، يقتبس أبيات شعر ضد الثقلاء قائلاً إن أبا حنيفة هو الذي كان يتمثّل بها =

لا شك أن بشار بن برد الشاعر الأعمى المتهكم، وكان من مخضرمي الدولتين، والذي تنسب إليه بعض هذه النوادر، كان قد استهزأ فعلاً بالثقلاء. فعلاوة على الأقوال النثرية المسندة إليه في باب نوادر الثقلاء[١٢٥] (ونحن لا نقيم وزناً لتحديد قائليها والفترة الزمنية التي نشأت فيها) نعثر على أبيات له في الباب نفسه، ليست صحتها موضع شك، لأنها تتكرر في ديوان شعره[١٢٦]. كذلك لا يداخل القارئ أي شك في صحة الأبيات الواردة على لسان الشاعر أبي نواس[١٢٧] الذي خلفه في نشاطه في البلاط العباسي ومحافل الأمراء والحكام فلقي فيها حظاً أوفر من الإستحسان والقبول.

وابتداء من القرن الثالث الهجري، أي التاسع الميلادي، أو قبل ذلك بقليل، اهتم كتّاب الأدب بجمع مثل هذه النوادر التي كانت قد راجت شفهياً، فخصص لها بعضهم، مثل ابن قتيبة وابن عبد ربه

= أي كأنما هو الذي خاف من ثقالة الثقلاء... ثم تتلوها في نفس الورقة نادرة عن الأعمش وكيف استهزأ بأبي حنيفة لأن الأعمش كان يستثقله. إذن، أمامنا تناقض بين النوادر والأخبار المختلفة... هناك من يحكي أن أبا حنيفة هو الذي قام بنفس الاستهزاء، أي هو الذي كافح الثقالة، وانظر «نزهة الأخيار» في الملاحق، أدناه، ص ١٥٣. وعند ابن حمدون، «التذكرة»، راغب باشا، ١٠٧٩، ورقة ٧٢، نجد أن أبا حنيفة كان يميل إلى السكوت!

(١٢٥) انظر مثلاً أدناه، ص ١٢٨، سطر ١٦.

(١٢٦) بشار بن برد، «ديوان»، القاهرة، ١٩٥٧، ج ٤، ص ١٩٨؛ وانظر ابن قتيبة، المصدر المذكور، ج١، ص ٣١٠.

(١٢٧) انظر مثلاً ابن عبد ربّه، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧، وانظر مثلاً عند أبي نواس، «ديوان»، بيروت، ١٩٥٣، ص ٥٣٦، ٥٣٨، ٥٣٩.

الذي تبعه، فصلاً في كل من موسوعتيهما الكبيرتين[١٢٨]. وسنشير في حواشي تحقيقنا للنصوص التي ننشرها هنا، إلى سائر أدباء تلك الفترة الذين أولوا هذه النوادر ـ نوادر الثقلاء ـ اهتمامهم، ومنهم البيهقي والبستي والثعالبي وابن عبد البرّ النمري، والزمخشري وغيرهم؛ وقد اوردوها في مجاميع نثرية مختلفة الأشكال.

أما أول من أفرد لموضوع الثقلاء كتاباً خاصاً فهو أبو بكر محمد بن خلف ابن المرزبان[١٢٩]، المتوفى عام ٣٠٩ هـ، ٩٢١ م، وهو صاحب «كتاب الثقلاء»، وكان له ميل طبيعي إلى جمع المواد الأدبية التي يشوبها الهزل[١٣٠]. وكان عبد القادر المغربي اول من نشر عن هذه المجموعة من نوادر الثقلاء وجامعها ابن المرزبان، وذلك في عام ١٩٣٢[١٣١]. وعالج في دراسته هذه العلاقة بين نوادر الثقلاء ونوادر البخلاء من حيث الدوافع النفسية. وضمّن مقاله اقتباسات، أغلبها مختصرة، من مخطوطة مكتبة الظاهرية[١٣٢]، غير أنه حذف كثيراً من القطع الأدبية مكتفياً بمختارات منها، لصعوبة قراءة المخطوطة، على حد قوله، وذلك بسبب ما أحدثته فيها عوامل

(١٢٨) ابن قتيبة، المصدر المذكور، ج١، ص ٣٠٩ ـ ٣١١ (وربما اعتمد على ما جُمع قبله!)؛ ابن عبد ربّه، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠.

(١٢٩) انظر: C. Brockelmann, *G.A.L̀.*, S I, pp. 189-190

(١٣٠) فقد ألف كتاباً عن الكلاب «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب»، القاهرة، ١٣٤١ هـ (كذلك نَشَره ركس سميث مع ترجمة إلى اللغة الإنكليزية، وارمينستر، ١٩٧٨).

(١٣١) انظر المغربي، الدراسة المذكورة، ص ٤٤٩ ـ ٤٦٩.

(١٣٢) نفس الدراسة، ص ٤٥٢ حيث يذكر: مخطوطة الظاهرية ١٨ من قسم المجاميع؛ وانظر بروكلمان، الصفحتين المذكورتين.

الزمن. . . وبالرغم من هذا النقص فإن القطع المنشورة تمتع القارئ وتوقفه على ما في هذا الوع الأدبي من جمال ورونق. لذلك، فقد آثرنا أن نورد فيما يلي قائمة بما أثبته وما لم يثبته المغربي من النصوص في الثلث الأول من هذا الكتاب. وفي هذه اللائحة التلخيصية ما يكفي للوقوف على وفرة الموادّ الشاملة التي جمعها ابن المرزبان وثرائها. فالأحاديث الدينية الجدية مثلاً تحتل في الأصل حيزاً يفوق في حجمه ماورد في المقال. وهنا يكمن أحد الفروق بين ابن المرزبان وبين سائر الجامعين، إذ أنه تفوق على غيره من الجامعين كماً وكيفاً في اختياره للنصوص، ولم يترك أي خبر أو أثر يتعلق بالثقالة والثقلاء إلاّ أورده. وقد جمع كذلك إلى نوادر الثقلاء بعض الأحاديث والأقوال عن البغض والبغضاء.

ومع أننا وصفناه بأنه يميل إلى جمع النوادر الهازلة، فالواضح أن استقصاءه المفرط في جمع الآثار والأخبار الدينية يضفي على كتابه شيئاً من الرزانة؛ فالمؤلف ينأى بالقارئ عن الإبتسام، في بعض الفقرات، ثم يضحكه في بعضها الآخر.

وفيما يلي اختصار لبعض النصوص التي وردت عند ابن المرزبان والتي سنعتمد عليها في نشر سائر الفصول عن نوادر الثقلاء:

مقالة المغربي	المخطوطة	مضمون النص
ــــ	١٩ و	عنوان الكتاب واسم مؤلفه واسم من روى ونقل عنه
ناقص	١٩ ظ	أسانيد من نقلوا عن ابن المرزبان، نقلاً عن أبي بكر بن جلدك، قراءة عليه، سنة احدى وأربعين وستمائة هجرية.

ناقص	١٩ ظ	حثّ القارئ على التأدب والتأديب. بيتان من الشعر يلائمان هذا الهدف.
٤٥٦	١٩ ظ	عن انس بن مالك، ان الآية المذكورة «فإذا طعمتهم فانتشروا» وردت في حفلة زفاف زينب إلى رسول الله لأن بعض الضيوف مكثوا وتحدثوا أكثر من المتوقع(١٣٣).
٤٥٦	١٩ ظ	رواية الحسن عن نفس الآية وأنها وردت ضد الثقلاء.
ناقص	١٩ ظ	أحاديث شتى ليست هزلية تخص أخلاقية الإنسان، وذم البغيض إلى الناس، ومدح من يحبه الناس.
ناقص	١٩ ظ	عن رسول الله: أبغضكم إلى الله ابغضكم إلى الناس.
ناقص	١٩ ظ	عن عمر بن الخطاب أنه سمع مثل هذا الحديث من رسول الله: أن أبغض الناس من يبغض الناس ويلعنهم، وهم يبغضونه ويلعنونه.
ناقص	١٩ ظ ـ ٢٠ و	تكرّر اقتباس مثل هذا الحديث بحضرة عمر ابن عبد العزيز.
ناقص	٢٠ و	عن جابر أن رسول الله ذم الشرثارين والمتشدقين والمستكبرين.
ناقص	٢٠ و	خرج موسى ليستسقي فرفض الله دعوته لأنه كان في قومه رجل بغيض.
٤٥٦	٢٠ و	كان أبو هريرة إذا ثقل عليه الرجل قال: اللهم اغفر له وأرحنا منه(١٣٤).

(١٣٣) انظر أعلاه، ص ١٠٦، وأدناه، ص ١١١، ١٢٩ ـ ١٣٠.

(١٣٤) انظر أدناه، ص ١٢٠، ١٤٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٥٩.

ناقص	٢٠ و	غير واضح الكتابة ممحوّة.
٤٥٦	٢٠ و	عن عمر بن الخطاب: من أمن الثقل فهو ثقيل، وعن ابن أبي سليمان عن أبيه: من خاف أن يكون ثقيلاً فهو خفيف(١٣٥).
٤٥٧	٢٠ و	لعن رسول الله من يجلس وسط الحلقة. روى ذلك حذيفة ولعن رجلاً جلس في وسط الحلقة وتمنى أن يميته الله.
ناقص	٢٠ و	يؤكد ابن السماك أن مثل هذا التمني يخطر بالبال أحياناً. . .
٤٥٧ ـ ٤٥٨	٢٠ و ـ ٢٠ ظ	أسود بن سالم لم يردّ السلام على ثقيل جاءه من أحد جانبيه فاغمض أسود عينيه، ثم جاء الثقيل من الجانب الآخر فلم يرد عليه أسود، وقال، غمّضت عيني لأن لا أراه من بغضه [وهو] يريد أن أردّ عليه السلام؟!
٤٥٨	٢٠ ظ	قال هشام بن عروة لرجل: لأنت أثقل من الزواقي أي الديوك؛ والزقاء صوت الديوك عند مجيء الصبح، وكان العرب يسمرون في الليالي ويشقّ عليهم هذا الصوت لمجيء الفجر. ولم يعرف الفراء معنى «الزواقي» عندما سئل عنها، فأعلمه بعض الحاضرين في مجلسه. . .
ناقص	٢٠ ظ	أشخاص كفّ بصرهم وقالوا أن الله عوّضهم بعدم رؤية الثقلاء. منهم من وصف ذلك «التعويض»، في محادثته مع بعض الثقلاء، قائلاً: [التعويض هو] أن لا أراك ولا تقع

(١٣٥) انظر أدناه، ص ١٢١.

		عيني عليك. وكذلك بشار بن برد الذي قال لثقيل: [التعويض هو] ألا أرى وجهك فأموت غماً[١٣٦].
ناقص	٢٠ ظ	الثقل كالصوم في الشتاء[١٣٧].
ناقص	٢٠ ظ	نص غير واضح ومقطوع عن الشعبي أنه وصى بمن أراد أن يتخلص من الثقيل أن يحول قفاه إليه.
ناقص	٢٠ ظ	شعر يصف الثقيل بأنه قدح لبلاب في عين المريض[١٣٨].
٤٥٨	٢٠ ظ	رجل له ابنان ثقيلان يقول: امرأتي طالق إن كانت الزوراء عند أحد ابنيّ إلا جاروشة! أي ليس قصر عثمان بن عفان (المسمى بالزوراء) إلا أصغر حجر عند المقارنة مع ثقالة كل من الابنين. . .
٤٥٨	٢٠ ظ	قال أحد الأعراب أن عمه كان يخشى عليه عند مشاهدة الثقيل.
ناقص	٢٠ ظ	شاعر يصف صاحبين له، كان كلاً منهما حدّ وتد يحسّ وخزته في رأسه.
ناقص	٢١ و	شعر يصف الثقيل بأنه لو علم ابن آدم أنه سيكون من نسله لاختصى[١٣٩].
٤٥٨ ـ ٤٥٩	٢١ و	وصف ابن عائشة ثقيلاً بأنه «صنجة الميزان».
٤٥٩	٢١ و	عند مشاهدة الثقيل تغيم السماء.

(١٣٦) انظر أدناه، ص ١٢٧ ـ ١٢٨، ١٤٤، ١٥٢.
(١٣٧) انظر أدناه، ص ١٣٦.
(١٣٨) انظر أدناه، ص ١٣٧ وملاحظة ٢٢١.
(١٣٩) قارن مع ما يرد أدناه، ص ١٥٢، سطر ١٠.

٤٥٩	٢١ و	صاح بعض المشايخ عندما أبصر ثقيلاً: الحجر! الحجر!
٤٥٩	٢١ و	كان وكيع إذا جلس إليه ثقيل يغمض عينيه ويقوم عنه(١٤٠).
٤٥٩	٢١ و	رأى معمر في صنعاء فتى يستثقله، فجعل كلاهما يعدان ثقلاء صنعاء فعدّ الفتى معمراً بينهم وعدّ معمر الفتى بينهم...
٤٥٦	٢١ و	الأصمعي عن ابن أبي طرفة: مجالسة الثقيل حمى باطنة(١٤١).
٤٥٩	٢١ و	الشعبي: من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء(١٤٢).
٤٥٩	٢١ و	حذيفة: أن الثقيل ليدعوني أحياناً إلى الطعام فأقول: أنا صائم.
٤٦٠	٢١ و	الشعبي: من الناس من يخفّ، ومنهم كرحى البزر ركبت على ظهري(١٤٣).
ناقص	٢١ و	هجاء لشاعر يفضل على الثقيل [غير واضح في الأصل] من يمارس الأشغال المحتقرة كالحياكة والحجامة.
ناقص	٢١ و	هجاء من هو «بغيض الله والشيطان والانس»
٤٦٠	٢١ و	سئل شعبة عن رجل ثقيل فقال: «دعني لا أقيء»، لأنه كان يتقيأ عند ذكر ذلك الثقيل.
ناقص	٢١ و	لما مات حماد بن أبي سليمان لقي أبو حنيفة محمد بن جابر مراراً، وكان، كما يصف ابن

(١٤٠) قارن مع ما يرد أدناه، ص ١٢٧ ـ ١٢٩، ملاحظة ١٩١.
(١٤١) انظر أدناه، ص ١٢٢ ـ ١٢٥.
(١٤٢) انظر أدناه، ص ١٥١، عن الأعمش.
(١٤٣) انظر أعلاه، ملاحظة ١٠٤.

		جابر: يسألني السؤال ويمنعني بن أخبره[١٤٤].
ناقص	٢١ و	شعر لأبي بكر القرشي يحثّ الجلساء على النهوض بسبب البغض الذي في الفؤاد...
ناقص	٢١ و ـ ٢١ ظ	شعر يقارن بين الحبيب والبغيض: أما الحبيب فلا يملّ حديثه/ وحديثه من أبغضته مملول.
٤٦٠	٢١ ظ	قال شريك لمن طلب منه عدة مرات أن يحدثه بأحاديثه، قال له بالفارسية ما معناه: أنت ثقيل، ولو كنت ثقيلاً بالعيان لخفّ الأمر وهان، ولكنك ثقيل على القلب أيضاً...
٤٦١	٢١ ظ	عيادة حمقى القراء أشدّ على [المريض وأهل] المريض من مرض مريضهم، يعودونه في غير وقت عيادة ويطيلون الجلوس.
٤٦١	٢١ ظ	استأذن الحجاج بن أرطأة على الأعمش فلم يأذن له قائلاً: أبكي عليّ! أبكي علي!
ناقص	٢١ ظ	قال الأصمعي أنه ليس في الدنيا [أعمى] إلا ثقيل ولا أحدب إلا [خفيف][١٤٥].
٤٦٢	٢١ ظ	لِمَ صار الثقيل أثقل على القلب من الحمل الثقيل؟ جواب المأمون: لأنه يجتمع على الحمل الثقيل الروح والبدن؛ والثقيل تنفرد به الروح[١٤٦].
٤٦٢ ـ ٤٦٣	٢١ ظ	صاح شريك عند مكوث أحد الثقلاء، ويسمى أبا سويد، عنده: يا جارية اسبلي الستر واخرجي الذباب وأبا سويد...

(١٤٤) وفيما يتعلق بأبي حنيفة انظر أعلاه، ص ١٠٨.

(١٤٥) انظر أعلاه، ص ٢٦، وأدناه ص ١٣٥.

(١٤٦) انظر أدناه، ص ١٣٣ ـ ١٣٤) (وملاحظة ٢٠٨)، ١٥١، ١٥٩.

ناقص	٢١ ظ	شعر يصف مكوث الثقيل عند مضيفيه وسوء طلعته.
٤٦٤	٢١ ظ	شعر لأبي سعيد الأهوازي يشبه شؤم الثقيل بفراق الحبيب، وطول هجر على جفاء، وكذلك بكسر ضلع ونتف صدغ بماء صمغ وموميا.
٤٦٤	٢١ ظ	دخل ثقيل على ابن مصقلة يعوده وأرهقه بذكر نفس الخبر عن وفاة فلان ثلاث مرات، وسأله الثقيل عند خروجه: ألك حاجة؟ قال: أن لا تعودني ما دمت مريضاً[١٤٧].
ناقص	٢١ ظ	شعر لأحمد بن علي يبدأ: أنت والله ثقيل / وأنا أيضاً ثقيل.

أما النوادر الواردة في الأقسام الأخرى من المخطوطة والتي تستحقّ الدراسة المقارنة ضمن بحثنا هذا فسيجد القارئ عدداً كبيراً منها في حواشي النصوص الأدبية التي ننشرها في الفصول القادمة.

٤. جلال الدين السيوطي ورسالته «اتحاف النبلاء»

إن جلال الدين السيوطي، المتوفى عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، أشهر من أن يحتاج إلى التعريف، وقد لمّحنا أعلاه إلى بعض أنحاء نشاطه الأدبي في مجال الهزل[١٤٨]، والذي لم يكن إلا جزءاً يسيراً من نتاجه الأدبي والعلمي والديني والثقافي الوافر، المتنوع.

إن السيوطي لم يتأثر تأثراً بالغاً في رسالته «اتحاف النبلاء بأخبار

(١٤٧) انظر أدناه، ص ١٤٢.

(١٤٨) انظر أعلاه، ص ٣١.

الثقلاء»[149]، على ما يبدو، بكتاب ابن المرزبان المذكور، مع أن السيوطي يقتبس عنه فيورد احدى نوادره التي وصلته[150]، ونحن لا ندري: هل وصلته بطريق غير مباشر، بواسطة مؤلف من المؤلفين الذين نقلوا عن ابن المرزبان، أم قرأه السيوطي نفسه، فأهمل أغلب المواد الواردة فيه، وذلك عند قيامه بتأليف «اتحاف النبلاء» (على الرغم من أن كتاب ابن المرزبان كان أكبر حجماً وكان حافلاً بالأخبار الأخلاقية والدينية التي تجذب عادة اهتمام السيوطي، فلو أنه قرأ الكتاب لم يكن ليكتفي بنادرة واحدة...)؟

وسيجد القارئ فيما يلي نصّاً مأخوذاً من رسالة السيوطي عن الثقلاء، من الجدير بالذكر أننا سلكنا في كتابة الحواشي مسلكاً لا يشبه المتعارف عليه، إذ أنها لا تضم الروايات المختلفة للنصوص فحسب، وإنما ترد فيها التعابير والألفاظ وشتى «المواضيع» التي تشبه النصّ (أي ـ «المواضيع» ـ motifs، علاوة على اختلافات الروايات ـ variants)، وذلك دعماً لقائمة «التشبيهات» التي وردت في البند ٢ أعلاه، وتأكيداً لما قيل عن زخم هذه النوادر من ناحية الأسلوب واختلاف أشكالها وكثرة تشعبّها في الأدب العربي؛ كما ونورد في الحواشي الأقوال غير الهزلية التي تشبه النوادر المقتبسة في نصّنا هذا، إلا أن هذه الأقوال تضاهيها في الفكرة العامة مع اختلافها كلياً في صياغتها الشكلية.

أما الرموز التي اخترنا للمخطوطات[151] فتكون كما يلي:

---

(١٤٩) انظر التفاصيل أدناه، ملاحظة ١٥١.

(١٥٠) ورقة ١٠٩ ظ من مخطوطة جامعة ليدن ٤٧٤/١٤ المذكورة أدناه.

(١٥١) وهي التالية: مخطوطة جامعة برينستون، H ١١٥٢ [٢٠٠٧]، ورقات ١٤ =

الرمز	المخطوطة
(ب)	مخطوطة برينستون المذكورة
(ر)	مخطوطة رئيس الكتّاب المذكورة
(س ـ ١)	مخطوطة السليمانية المذكورة الأولى
(س ـ ٢)	مخطوطة السليمانية المذكورة الثانية
(ل ـ ١)	مخطوطة ليدن المذكورة الأولى
(ل ـ ٢)	مخطوطة ليدن المذكورة الثانية

[من «اتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء» لجلال الدين السيوطي]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام[١٥٢] على عباده الذين اصطفى.

روى[١٥٣] الحافظ أبو محمد الحسن[١٥٤] بن محمد بن الحسن الجلال[١٥٥] في كتابه «أخبار الثقلاء» عن أبي هريرة[١٥٦]، أنه كان

= ظ ـ ١٥ ظ؛ مخطوطة رئيس الكتّاب، ٤٦/١١٤٩ [الرقم القديم: ١١٥٠/ ٤٦]، ورقات ٢٥٧ و ـ ٢٦٠ ظ؛ مخطوطة السليمانية، ١٢٧/٧٠٨، ورقات ٣٤٠ ظ ـ ٣٤١ ظ؛ مخطوطة أخرى من السليمانية، ٣/١٠٣٠، ورقات ٩ ظ ـ ١١ و؛ مخطوطة جامعة ليدن، ١٤/٤٧٤، ورقات ١٠٧ ظ ـ ١١٠ ظ؛ مخطوطة أخرى من جامعة ليدن، ٢٧٧٢، ورقات ١ و ـ ٦ ظ.

(١٥٢) وكفى (ر).

(١٥٣) وروى (ل ـ ١).

(١٥٤) حذفت الكلمات الأربع التالية في (ل ـ ٢).

(١٥٥) الخلال (ل ـ ١).

(١٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه (ب). انظر ما ورد عند ابن قتيبة، المصدر =

إذا استثقل الرجل[157] قال[158]: اللهم! اغفر لنا وله وارحنا منه[159]!

= المذكور، ج ١، ص ٣٠٩؛ ابن عبد ربّه، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٩٦؛ في حين أن ابن المرزبان، «كتاب الثقلاء»، حسب مقالة المغربي المذكورة، ص ٤٥٦، ينسب هذا القول نفسه إلى أبي هريرة؛ وانظر في القائمة، أعلاه، ص ١١٢؛ وعند معظم المؤلفين ينسب القول إلى أبي هريرة. وانظر كذلك: البستي، «روضة العقلاء»، القاهرة، ١٣٢٧هـ، ص ٥٤، والقاهرة، ١٩٤٩، ص ٧٢؛ الرقيق القيرواني، قطب السرور»، دمشق، ١٩٦٩، ص ٣٦٢؛ ابن عبد البرّ النمري، «بهجة المجالس»، القاهرة، ١٩٦٢، ج ١، ص ٧٣٢؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار» مخطوطة آيا صوفيا، O/٣٩٨٤، ورقة ١٥٧ ظ؛ وما اختصر عند محمد بن قاسم بن يعقوب، «روض الأخيار»، القاهرة، ١٢٨٠هـ، ص ٢٢٣؛ الوطواط، «غرر الخصائص»، القاهرة، ١٢٨٤هـ، ص ٤٥٤؛ وفي «مختصر غرر الخصائص الواضحة»، لندن، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٣٦٣٠، ورقة ١١١ ظ؛ المعري الشافعي، بهجة السرور»، مخطوطة طوبقبو، ٢٣١٩ ـ A، ج ١، ورقة ٢٠ ظ، اقتباساً عن ابن قتيبة، وانظر أدناه، ص ١٤٢؛ مؤلف مجهول، نزهة الأخيار»، مخطوطة فاتح، ٤١٣٥، ورقة ٩١ ظ؛ وانظر أدناه، ص ١٥٣؛ الخلوتي، نزهة الأخيار ومجمع النوادر» مخطوطة كمبريدج، القسم الشرقي، ١٤٥٤ (٨)، ورقة ٤٢ ظ؛ مؤلف مجهول متأخر، «بهجة الجليس»، باريس، مخطوطة المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٤٨، ورقة ٥٧ ظ.

(١٥٧) من هنا يبدأ حذف في (ل ـ ٢).

(١٥٨) فقال (س ـ ٢، ل ـ ١)؛ والصواب من المخطوطات الأخرى ومن ابن قتيبة وابن عبد ربّه، المصدرين المذكورين، الصفحات المذكورة وغيرهما من المؤلفين.

(١٥٩) إلى هنا الحذف في (ل ـ ٢)؛ وعند الزمخشري، المصدر المذكور، الورقة المذكورة، «رجل» بدلاً من «الرجل»، أما المعري الشافعي، المصدر المذكور، الورقة المذكورة، فيورد «اغفر له» بدلاً من «اغفر لنا وله».

وروى[١٦٠] عن حماد بن أبي سليمان[١٦١]، قال[١٦٢]: من خاف أن يكون ثقيلاً فهو خفيف ومن أمن أن يثقل ثَقُل[١٦٣].

وروى عن مساور الورّاق[١٦٤]، قال: إنما تطيب المجالسة بخفة[١٦٥] الجلساء[١٦٦]، اخرجه[١٦٧] الخرائطي في «مكارم الأخلاق»[١٦٨].

---

(١٦٠) روى (ر).

(١٦١) حماد بن سليمان (س ـ ١، ل ـ ١، ل ـ ٢)، واسمه الصحيح حماد بن أبي سليمان كما ورد في (ب، ر، س ـ ٢)؛ وانظر ابن قتيبة، المصدر المذكور، ج ١، ص ٢٩٨، والطبري، تأريخ»، ليدن، ١٨٧٩ ـ ١٨٩٠، سلسلة ٣، ص ٢٤٩٧، ٢٤٩٨؛ أما الرقيق القيرواني، المصدر المذكور، ص ٣٦١ فينسب هذا القول إلى إبراهيم ابن سيار النظام. وانظر ابن الرزبان، أعلاه ص ١١٣.

(١٦٢) سقطت الكلمة من (ب).

(١٦٣) انظر ما ورد عند البيهقي، «المحاسن والمساوئ»، بيروت، ١٩٦٠، ص ٥٩٠: وقد قيل: إذا علم الثقيل أنه ثقيل فليس بثقيل؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة ايا صوفيا، O/٣٩٨٤، ورقة ١٥٧ و: إذا علم الرجل...؛ وانظر كذلك الحصري، «جمع الجواهر»، الطبعة المذكورة، ص ٢٩، حيث يرد نفس القول إلا أنه مطبوع بشكل شعر، أي «عجز بيت»، قاله شاعر مجهول: «من خاف أن يثقل لم يثقل»؛ أما ناشر الرقيق القيرواني، المصدر المذكور، ص ٣٦٢، فطبع هذا «العجز» كأنه نصّ نثري...

(١٦٤) أما عن مساور الوراق فانظر عند أبي الفرج الاصفهاني، «الأغاني»، القاهرة، ١٢٨٥هـ، ج ١٦، ص ١٦٧ ـ ١٦٩.

(١٦٥) تخفة (ل ـ ٢).

(١٦٦) الجليس (ب).

(١٦٧) واخرج (ر).

(١٦٨) لا توجد الفقرة في «مكارم الأخلاق» للخرائطي، طبعة القاهرة، ١٣٥٠هـ، لأن في هذه الطبعة نقصاً، ويبدو أنه سقطت منها عدّة فصول. إلا أننا نجد =

وروى عن [١٦٩] جبريل المتطبّب[١٧٠] كان [١٧١] بالشام[١٧٢]، قال:

نجد[١٧٣] في كتبنا الثقيل حمى[١٧٤] الروح[١٧٥].

= الفقرة المطلوبة في مخطوطة «مكارم الأخلاق» في جامعة ليدن، القسم الشرقي، ١٢٢، ورقة ٥٥ ظ.

(١٦٩) واخرج عن (ر).

(١٧٠) متطبّب (س ـ ١، س ـ ٢، ل ـ ١)، مطببا (ل)، وفي (ب، ر) وابن المرزبان، «كتاب الثقلاء»، ضمن مقالة المغربي المذكورة، ص ٤٦٥: الطبيب. وانظر كذلك ابن أبي اصيبعة، «طبقات الأطباء»، القاهرة، ١٢٩٩هـ، ص ١٢٣ ـ ٢٠٣، حيث يصف بعض الأطباء بالنعت «المتطبب» (مثل ميخائيل المتطبب) وبعضهم بالنعت «الطبيب» دون أي تمييز، ويذكر المؤلف جبرائيل (أي: جبريل في نصنا) ابن بختيشوع بن جرجيس، (ضمن الفصل المكرّس للأطباء «السريانيين») في ص ١٢٧ ـ ١٣٨. وقارن مع ملاحظة ١٧٢ أدناه.

(١٧١) وكان (ر).

(١٧٢) بالشام (ر، س ـ ١، س ـ ٢، ل ـ ٢)، في الشام (ب)؛ وعند ابن المرزبان، «كتاب الثقلاء»، الصفحة المذكورة: الدمشقي. ودمشق، كما نعرف، هي «الشام»، حسب أحد معاني كلمة «الشام»، بيد أن عائلة بختيشوع لم تعش في دمشق، ونحن نجدها في جنديسابور، وكذلك في بلاط الخلفاء العباسيين في العراق، وربما نسب جبريل إلى الشام، هنا، لكونه «سريانياً»، كما ورد في ملاحظة ١٧٠ أعلاه (إلا أن هناك بوناً شاسعاً بين «سوري» أي من أهالي سوريا و«سرياني» بالمعنى الذي استعمله ابن أبي اصيبعة).

(١٧٢) كنا نجد (ب).

(١٧٤) وفي (ل ـ ٢) ما يشبه «حي» أو «هي» وهو تحريف أو كتابة غير واضحة لكلمة «حمى».

(١٧٥) إن تشبيه الثقالة ومجالسة الثقلاء بالحمى من أوضح النماذج لاختلاف التعابير وأسماء الرواة (ومنهم فلاسفة وأطباء إلخ): =

... ...

= ابن قتيبة، «عيون الأخبار»، الطبعة المذكورة، ج ١، ص ٣٠٩: «حمى الروح»، قاله بختيشوع للمأمون؛ ابن المرزبان، «كتاب الثقلاء»، ضمن مقالة المغربي المذكورة، ص ٤٦٢، حيث ورد أنه قيل للمأمون عن «الحكماء» إنهم يعتبرون مجالسة الثقيل «حمى الربع» (!)؛ وفي نفس المصدر، ص ٤٦٥، يرد قول جبريل المتطبب كما يرد عندنا؛ ثم، في نفس الصفحة، جواب الشعبي حين سئل: «هل تمرض الروح؟»، قال: «نعم! من ظلّ الثقلاء»؛ البيهقي، «المحاسن والمساوئ»، الطبعة المذكورة، ص ٥٨٩، النصّ كما ورد عندنا، ولكن «كتب الطب» بدلاً من «الطب»، وقد يكون ما أورده البيهقي أصحّ، البستي، «روضة العقلاء»، القاهرة، ١٣٢٧هـ، ص ٥٣، والقاهرة، ١٩٤٩، ص ٧١، عن ابن ماسويه المشهور: «النظر إلى الثقيل حمى تعتري بين الجلدين»؛ أبو المطهر الازدي، «حكاية أبي القاسم»، هيدلبرج، ١٩٠٢، ص ١١٨، مجالسة الثقيل - «حمة» بضم الحاء، وفي نفس المصدر، ص ١٤٣، تشبيه هذه المجالسة بالربع، أي «حمى الربع» المذكورة أعلاه؛ والرقيق القيرواني، «قطب السرور»، الطبعة المذكورة، ص ٣٦١، يقتبس نصيحة عن بعض الأطباء (مجهول الاسم!): «مشاهدة الثقيل حمى الروح»؛ الآبي، «نثر الدر»، مخطوطة رئيس الكتّاب، ٩٤٠، ج ٧، ورقة ٢٠١ و - ٢٠٢ ظ؛ الثعالبي، «التمثيل والمحاضرة»، الطبعة المذكورة، ص ١٨٠، ينسب ذلك إلى جالينوس، ولكن نفس المؤلف ينسب هذا القول إلى بختيشوع - في كتابه «خاص الخاص»، بيروت، ١٩٦٦، ص ٧٧؛ وانظر كذلك الثعالبي، «ثمار القلوب»، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٦٧٢؛ الثعالبي، «لطائف الظرفاء»، ليدن، ١٩٧٨، ص ٧٠، وطبعة بيروت، ١٩٨٠، تحت عنوان «الطائف اللطف»، ص ٩٤؛ ابن عبد البرّ النمري، المصدر المذكور، ج ١، ص ٧٣٣: «كان يقال...» أي بدون اسم فيلسوف أو طبيب أو أي شخص آخر؛ الراغب الاصفهاني، «محاضرات الأدباء»، الطبعة المذكورة، ج ٢، ص ٧٠١، بيت شعر: «أورثتني بجلوس/ إليك حمى مليلة»؛ الميداني، «مجمع الأمثال»، بيروت، ١٩٦١، ج ١، ٢١٧: «أثقل من الحمى»؛ الزمخشري، «المستقصى» حيدرأباد، ١٩٦٢، ج ١، ايا صوفيا، ٣٩٨٤/ =

... ...

= O، ورقة ١٥٧ ظ: قال الرشيد لبختيشوع: هل تحمّ الروح؟ قال: نعم، تحمّ من مجالسة الثقلاء، أما سمعت قول الحارث بن كلدة [وهو الطبيب المشهور في بداية التاريخ الإسلامي]:

ولنا في الحي للمقت جبل راسخ في الطول راسٍ قد مثلْ
يُمرِض الأرواحَ من رؤيته ويغشيها نعاسا وكسلْ

وفي نفس المصدر، ورقة ١٥٧ ظ: «رؤية الثقيل حمى باطنة» وكذلك: «مجالسة الثقيل حمى الربع»؛ وانظر كذلك اختصار «ربيع الأبرار» المذكور أعلاه، «روض الأخيار»، ص ٢٢٣؛ أما أسامة بن مرشد، «لباب الآداب»، القاهرة، ١٩٣٥، فيورد ما يشبه قول جالينوس المقتبس أعلاه، إلا أن الكلمة «ثقيل» أو «ثقلاء» لا تظهر فيه، فترد عنده هذه الحكمة فيما يتعلق بالغضب والجهل اللذين هما للروح «كالمرض والقيح» للبدن؛ ابن الجوزي، «أخبار الظراف والمتماجنين»، النجف، ١٩٦٧، ص ٣٠ جواب الشعبي لما سئل عن مرض الروح فقال إن ذلك من ظلّ الثقلاء؛ ونفس المصدر، ص ٣٢، عن الأعمش، يقتبس جالينوس: «لكل شيء حمى، وحمى الروح ـ النظر إلى الثقلاء»؛ الوطواط، «غرر الخصائص»، القاهرة، ١٢٨٤هـ، ص ٤٥٤: بختيشوع عن «الفلاسفة»؛ المعري الشافعي، «بهجة السرور»، مخطوطة طوبقبو ٢٣١٩ ـ أحمد، ج ١، ورقة ٢٢ ظ، ورد القول اقتباساً عن بختيشوع، ثم عن جالينوس ثم عن بشر بن الحارث الذي قال: «رؤية الثقيل حمى باطنة»، وحسب رأينا ورد هنا اسم بشر بن الحارث تحريفاً أو تأثراً باسم الحارث ابن كلدة الطبيب المشهور الذي اقتبسنا أعلاه ما ينسب إليه؛ وفي نفس المصدر، ورقة ٢٣ و، وورقة ٢٧ و، أبيات شعر لابن الوردي ولصفي الدين الحلي، اللذين استعملا الكلمة «حمى» أو «حمى الربع» ضمن أوصافهما الشعرية للثقلاء؛ ابن عاصم القيسي الغرناطي، «حدائق الأزهار [الأزاهر]»، القاهرة، مخطوطة دار الكتب، ١٨٣٣ ـ أدب، ورقة ٧١ ظ، عن «طبيب» قال للحجاج بن يوسف إن مجالسة الثقلاء «حمى الروح»، إذن ينسب هذا القول هنا إلى الفترة الأموية، بدلاً من الفترة العباسية أو الحكمة اليونانية (!)؛ الأرموي، «آداب السياسة»، مخطوطة طوبريلي، ١٢٠٠، ورقة ٥٢ و (ص ١٢٩): وقال =

... ...

= بختيشوع للمأمون: لا تجالس الندماء [تحريف في النص عن: الثقلاء] فإنّا نجد في الطب أن مجالسة الثقلاء حمى الروح؛ مؤلف مجهول، «الروض النافر»، باريس، مخطوطة المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٨١، ورقة ١٧٤ و، عن «بعض الأطباء»؛ مؤلف مجهول، «نزهة الأخيار»، فاتح، ٤١٣٥، ورقة ٩٢ و، عن «بعض الحكماء» الذي حدّد مجالسة الثقلاء بأنها «حِمَام الروح»، والكلمة «حمام» هنا بمعنى «الموت» ربما نجمت عن «حمى»؛ الخلوتي، «نزهة الأخيار ومجمع النوادر»، مخطوطة كمبريدج، القسم الشرقي، (٨) ١٤٥٤، ورقة ٤٢ ظ، عن بختيشوع بحضرة المأمون وكذلك عن «يحيى» بأنها «ذبول الروح»؛ ونفس القول منسوب لأرسطوطاليس، عند كمال الدين الخزرجي الشافعي، «القمر الطالع»، مخطوطة نفس المكتبة والمجموعة، Qq-٢٠٩/٨، ورقة ٤٠ ظ؛ مؤلف مجهول، «حلية الأدب»، مخطوطة نفس المكتبة، Qq-٤٧، ورقة ١٤٩ ظ، نفس القول، لأرسطوطاليس، عن «ذبول الروح»، أما في ورقة ١٤٩ و فيقتبس المؤلف «يحيى»: «النظر إلى الثقيل يورث الحمى»؛ مؤلف مجهول، بدون عنوان، لندن، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١١٤١٢، ورقة ١١ و، عن بشر بن الحارث؛ وانظر ما قلنا أعلاه عن التبديل «الحارث بن كلدة ـ بشر بن الحارث». ولا شك أن أمامنا نموذجاً ممتازاً لتفرع نفس الموضوع (motif) ضمن الأدب العربي وكذلك نسبته إلى شخصيات مختلفة، منها أرسطوطاليس وجالينوس، والحارث بن كلدة، وبشر بن الحارث، وطبيب مجهول عالج الحجاج، والشعبي وبختيشوع بحضرة هارون الرشيد، أو بحضرة المأمون، وجبريل ابن بختيشوع في حضرة المأمون، وابن ماسويه، و«يحيى» وغيرهم...

ومن الجدير بالذكر أن السيوطي مؤلف النص الذي نحن بصدده هنا والذي يقتبس نفس القول هنا لجبريل المتطبب، يقتبس نفس القول، في سياق رسالته، ضمن القسم الذي لا ننشره هنا، مخطوطة (ل ـ ٢) ورقة ٤ و، يقتبسه منسوباً إلى بختيشوع، وهو والد جبريل المذكور (!) في حين أنه يقتبس نفس القول، بشكل أطول، في ورقة ٤ ظ، عن الأعمش، أن النظر إلى الثقيل يسبّب «الحمى» والحمى من فيح الجحيم ولذلك ينصح الأعمش =

وروي عن يزيد بن هارون[١٧٦] أنه كان يقول للإنسان إذا استثقله: اللهم! لا تجعلنا ثقلاء!

وروي عن أبي أسامة، قال: سمعت هشام بن عروة يقول لرجل: أنت[١٧٧] أثقل من الزواقي[١٧٨] فلم يعرفها، فقال رجل من جلسائه: كانت العرب تسمر فإذا سمعت زقاء[١٨٠] الديكة[١٨١] استثقلتها لمجيء[١٨٢] الصبح، فأعجب ذلك الفراء[١٨٣].

= كل من رأى ثقيلاً أن يشرب الماء لتبرد حرارته... وهكذا نجد جلال الدين السيوطي يورد ثلاثة أشكال مختلفة لنفس «النادرة»، لأنه نقلها من مصادر يختلف بعضها عن بعض...

(١٧٦) كان يزيد بن هارون ممن يميل إلى مهاجمة الثقلاء والاستهزاء بهم شعراً ونثراً، وانظر البستي، «روضة العقلاء»، القاهرة، ١٣٢٨هـ، ص ٥٢، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٦٩؛ ابن الجوزي، «أخبار الظراف والمتماجنين»، الطبعة المذكورة، ص ٤٦؛ الخرائطي، «مكارم الأخلاق»، كما يرد أدناه، ملاحظة ١٩١.

(١٧٧) ابن المرزبان، «كتاب الثقلاء»، ضمن مقالة المغربي المذكورة، ص ٤٥٨: لأنت.

(١٧٨) الزقاق (ب).

(١٧٩) الكلمات «فسالت عنها الفراء» لم ترد في (ب).

(١٨٠) زقاق (ب)، وفي (ر): كانت العرب تسميها إذا سمعت زقاء الديكة...

(١٨١) الديك (ب، ل ـ ١، ل ـ ٢)، والصواب من (ر، س ـ ١، س ـ ٢) ومن ابن منظور، «لسان العرب»، بيروت، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦، ج ١٤، ص ٣٥٧: الديكة.

(١٨٢) لمجن [؟] (ل ـ ٢).

(١٨٣) الفراء ذلك (ر). وعند ابن المرزبان «كتاب الثقلاء»، حسب مقالة المغربي المذكورة، نفس الصفحة، وردت نفس النادرة وفيها بعض الاختلافات: حدثنا قدامة عن ابن أسامة قال: سمعت هشام بن عروة يقول لرجل: لأنت أثقل من الزواقي [فلم يفهم ابن قدامة معنى الكلمة «الزواقي»]، قال فذهبت =

وروي عن سفيان الثوري، قال: أنه ليكون في المجلس عشرة كلهم يخفّ عليّ فيكون فيهم الرجل الذي استثقله فيثقلون[(١٨٤)] عليّ[(١٨٥)].

وروي عن أبي معاوية الضرير[(١٨٧)]: قيل للأعمش[(١٨٨)]: ما عوّضك الله[(١٨٩)] من[(١٩٠)] ذهاب بصرك؟ قال: أن لا أرى به ثقيلا[(١٩١)].

= إلى الفراء إمام النحاة فسألته: ما الزواقي؟ فلم يعرفها فقال بعض جلسائه: إن العرب كانت تسمر بالليل سمراً يلذ لها ويستطاب، فإذا سمعت زقاء الزواقي، أي صياح الديوك، شقّ عليها مجيء الصبح المؤذن بتفرقهم؛ وعند ابن هلال العسكري، «جمهرة الأمثال»، القاهرة، ١٩٦٤، ج ١، ص ٢٩٣: أثقل من الزواقي ـ وهي الديكة، والزقاء صوت الديك، وكان الفتيان يسمرون بالليل حتى إذا زقت الديكة انصرف كل إلى رحله فاستثقلوها لقطعها عليهم سمرهم...؛ وعند الميداني، «مجمع الأمثال»، الطبعة المذكورة، ص ١٥: «أثقل من حمل الزواقي» مع شرح يشبه الرواية الواردة أعلاه [ولا شك أن الفعل «استعلتها» في هذه النشرة، بدلاً من «استثقلتها» ليس إلا تحريفاً أو خطأ مطبعياً]؛ وانظر كذلك ابن منظور، «لسان العرب»، الطبعة المذكورة، الصفحة المذكورة.

(١٨٤) ويثقل (ب)، وفي (ر) لا ترد الحكاية عن الزقاء من الكلمات «وروى عن أبي أسامة» إلى نهايتها.

(١٨٥) وهناك من يروي النادرة عن غير أبي معاوية ـ وانظر أدناه، ملاحظة ١٩١.

(١٨٦) من تلاميذ الأعمش المذكور أدناه، واسمه محمد بن خازم أبو معاوية، وانظر عبد السلام هارون في تحقيقه «لرسائل الجاحظ»، ج ٤، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٩، ملاحظة ٦.

(١٨٧) سقطت الكلمة من (س، ل ـ ١).

(١٨٨) انظر ما قيل عن الأعمش، أعلاه.

(١٨٩) في (ب): عوّضت.

(١٩٠) في (ر): عن.

(١٩١) البيهقي، المصدر المذكور، ص ٥٨٩: قال بعضهم: سخنة العين النظر إلى =

... ...

= الثقلاء؛ والعبارتان «سخنة العين» و«تسخين» العين عند البستي، المصدر المذكور، ص ٥٢ ـ ٥٣؛ وفي «كتاب الثقلاء» لابن المرزبان، المخطوطة [أعلاه ص]، ورقة ٢٠ ظ، وردت حكايات عن جماعة من المكفوفين الذين «عُوّضوا» عن فقد بصرهم بعدم رؤية الثقلاء... ورقة ٢٦ ظ عن «عوانة» الذي حكى ذلك بعدما كف بصره، وكل هذه النوادر لا ترد في نص مقالة المغربي المذكورة.

وانظر كذلك الخرائطي، «مكارم الأخلاق» مخطوطة ليدن، القسم الشرقي ١٢٢، ورقة ٥٧ و، حيث ورد قول يزيد بن هارون: «استراح الاضرّاء» وذلك بأنهك لا يرون الثقلاء...؛ ولا ترد هذه الرواية في النص المطبوع من «مكارم الأخلاق» [للسبب الذي شرحناه أعلاه، ملاحظة ١٦٨]؛ الراغب الاصفهاني، «محاضرات الأدباء»، الطبعة المذكورة، ج ٣، ص ٣١؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة ايا صوفيا ٣٩٨٤/O، ورقة ١٥٧ ظ عن الأعمش، وفي هذه الرواية بعض الاختلاف عن الروايات الأخرى؛ ابن الجوزي، «أخبار الظراف والمتماجنين»، الطبعة المذكورة، ص ٣١ ـ ٣٢، عن الأعمش؛ النويري، «نهاية الارب»، الطبعة المذكورة، ج ٤، ص ٢٢، عن بشار بن برد وكيف أجاب من سأله عن التعويض عن فقد بصره بأن التعويض... «فقد النظر لبغيض ثقيل مثلك»؛ الوطواط، «غرر الخصائص»، الطبعة المذكورة، ص ٤٥٤، عن الأعمش: «فإني ما رأيت ثقيلاً قط إلا واعمشت عيني»؛ وفي «مختصر غرر الخصائص» لندن، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٣٦٣٠، ورقة ١١١ ظ: «إلا واشتكت عيني»؛ المعري الشافعي، «بهجة السرور»، مخطوطة طوبقبو، ٢٣١٩ ـ احمد، ورقة ٢١ و، عن الاسود بن سليم الذي قال عن فقد البصر: استراح العميان «لعدم رؤية الثقلاء»، وفي ورقة ٢٣ ظ تتكرر نفس الحكاية، عن «بعض الناس»، وفي ورقة ٢٢ و: قال ثقيل للأعمى [وهو تحريف للاسم «الأعمش» المشهور، مع أن استعمال «الأعمى» لا يضرّ بالنكتة..]: إن الله لم يأخذ من عبد كريمتيه إلا عوّضه منهما شيئاً، فما الذي عوّضك؟ قال: أن لا أراك...!؛ مؤلف أندلسي مجهول [القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي؟]، «حكايات» بدون عنوان، =

٥ ـ فصل عن الثقلاء للميلوي
من القرن السابع عشر[١٩٢]

[من كتاب «رحلة الغريب»[١٩٣]]

. . . فقد قيل: ثلاث تشتدّ[١٩٤] مؤنتهم: النديم المعربد والجليس الثقيل والمغنّي البارد[١٩٥].

= المتحف البريطاني، Add-٩٥٨٧، ورقة ١٣٢ ظ، ان الأعمش سئل لماذا عمشت عيناه فقال: من النظر إلى الثقلاء؛ الغزي، «المراح في المزاح»، المطبعة المذكورة، ص ٥٢، نكتة شبيهة بذلك؛ الكرمي، «غذاء الأرواح»، باريس، مخطوطة المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٢٠٢٦، ورقة ٨٨ و، عن الأعمش؛ وانظر كذلك مؤلف مجهول، «نزهة الأخيار»، مخطوطة فاتح، ٤١٣٥، ورقة ٩٢ ظ؛ الخلوتي، «نزهة الأخيار ومجمع البلاغة»، مخطوطة كمبريدج، القسم الشرقي (٨) ١٤٥٤، ورقة ٤٣ و؛ مؤلف مجهول، بدون عنوان، لندن، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١١٤١٢، ورقة ١١ و: كان اسحاق بن إبراهيم إذا رأى ثقيلاً يقول: الآن طاب العمى.

(١٩٢) وهو يوسف بن محمد الميلوي المتوفى عام ١١٣٢هـ/١٧١٨م، ويقال إنه ليس بيوسف الوكيل الميلوي المتوفى عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م، وانظر: C. Brockelmann, *G.A.L.*, S II, pp. 414, 637-8

(١٩٣) مخطوطة رئيس الكتّاب، ٧٩٨، ورقات ٢٢٩ و ـ ٢٣١ و، ومخطوطة طوبقبو، احمد، ٢٤٠١، ورقات ٢٣٣ و ـ ٢٣٤ ظ. ونشير، فيما بعد، إلى المخطوطتين بالحرفين: «ر»، «ط» (!). ولم يرد ذكر الكتاب عند بروكلمان.

(١٩٤) يشتد (ر).

(١٩٥) انظر الرقيق القيرواني، المصدر المذكور، ص ٣٦١؛ الحفناوي البساري، «بغية الجليس»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٤٨، ورقة ٥٧ ظ؛ مؤلف مجهول، «الروض الناضر»، مخطوطة نفس المكتبة والمجموعة، ٣٥٨١، ورقة ١٧٤ و.

قال أبو هريرة(١٩٦): ذكر الله الثقلاء في كتابه العزيز(١٩٧) فقال: «فإذا طعمتم فانتشروا»(١٩٨).

---

(١٩٦) رضي الله عنه (ر).

(١٩٧) القرآن الكريم، سورة ٣٣، آية ٥٣.

(١٩٨) أما شرح المفسرين كالطبري والزمخشري وغيرهما فانظر أعلاه، ملاحظة ١١٩. والتفاسير تتحدث عن غضب رسول الله من بعض ضيوفه لما زفّت إليه زينب، ولكن غضبه يعود إلى تواضعه وحيائه علاوة على عدم احتماله للثقلاء... وانظر كذلك كتب الأدب التي ورد فيها هذا الخبر، مثل ابن قتيبة، المصدر المذكور، ج ١، ص ٣٠٩، عن الحسن؛ ابن عبد ربّه، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٩٥، عن عائشة؛ ابن المرزبان، «كتاب الثقلاء»، ضمن مقالة المغربي المذكورة، ص ٤٥٦؛ الرقيق القيرواني، المصدر المذكور، ص ٣٦٣؛ الراغب الاصفهاني، «محاضرات الأدباء»، الطبعة المذكورة، ج ٢، ص ٧٠٢، عن ابن عائشة؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة ايا صوفيا، O/٣٩٨٤، ورقة ١٥٧ و؛ السيوطي، «اتحاف النبلاء»، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٤٧٤، ورقة ١٠٨ و؛ مؤلف مجهول، «حلية الأدب»، مخطوطة كمبريدج، Qq-٤٧، ورقة ١٤٩ و؛ مؤلف مجهول، «المختار من نوادر الأخبار»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٩١، ورقة ١٧٤ و، ومخطوطة كمبريدج، Qq-١٩٨، ورقة ٥٥ و؛ المقرئ، «بلوغ الآداب في لطائف العتاب»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٩٤، ورقة ٨٧ ظ؛ مؤلف مجهول، «الروض الناضر»، مخطوطة نفس المكتبة والمجموعة، ٣٥٨١، ورقة ١٧٤ و؛ الخلوتي، «نزهة الأخيار ومجمع النوادر والأخبار»، مخطوطة كمبريدج، القسم الشرقي، ٨/١٤٥٤، ورقة ٤٢ ظ؛ مؤلف مجهول، بدون عنوان، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١١٤١٢، ورقة ١١ و؛ ومن الجدير بالذكر أن هذا القول ينسب في المصادر المذكورة إلى عائشة وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم.

وقال[١٩٩] غلام لأبيه: يا أبت[٢٠٠]! أخبرني مستملي أبي خيثمة[٢٠١] أن أبا خيثمة[٢٠٢] يستثقلني. فقال: يا بنيّ! فأنت ثقيل بالإسناد[٢٠٣]!

ومرّ بعض الظرفاء بصديق له ومعه شخص آخر، فقال له: كيف حالك؟ وأنشد:

[المنسرح]

وقائل: كيف أنت؟ قلت له ... هذا جليسي، فما ترى حالي[٢٠٤]؟

وقال آخر:

[المتقارب]

سألتك بالله ألاّ صدقت ... وعلمي بأنك لا تصدق
أتبغض نفسك من بغضها؟ ... وإلاّ ـ فأنت إذاً أحمق[٢٠٥]

---

(١٩٩) انظر نفس الحكاية، عند المعري الشافعي، «بهجة السرور»، مخطوطة طوبقبو، احمد، ٢٣١٩، ٨٥٧٨، ج ١، ورقة ٢٣ و.

(٢٠٠) ابة (ظ).

(٢٠١) في «بهجة السرور»: حيثمة.

(٢٠٢) في «بهجة السرور»: حيثمة.

(٢٠٣) في «بهجة السرور»: باسناد.

(٢٠٤) وانظر ابن قتيبة، المصدر المذكور، ج١، ص ٣١١؛ المعري الشافعي، مخطوطة «بهجة السرور» المذكورة، ج ١، ورقة ٢٨ ظ؛ مؤلف مجهول، مخطوطة «الروض الناضر» المذكورة، ورقة ١٧٤ ظ.

(٢٠٥) انظر البيهقي، المصدر المذكور، ص ٥٩٠؛ أما الثعالبي (انظر «ثمار القلوب» في الملاحظة التالية) والمعري الشافعي، مخطوطة «بهجة السرور» المذكورة، ج ١، ورقة ٢٦ ظ، فيوردان مع هذين البيتين بيتاً ثالثاً، والشعر منسوب عند المعري الشافعي إلى دعبل، ولكن الأبيات غير موجودة في =

وقال ابن بسّام في أخيه:

[الخفيف]

يا طلوع الرقيب ما بين إلف ... يا غريما يأتي على ميعاد

يا ركوداً في يوم غيم وصيف ... يا وجوه التجّار يوم الكساد(٢٠٦)

= «ديوان دعبل»، طبعة بيروت، ١٩٦٢، وطبعة دمشق، ١٩٦٤. وانظر كذلك الملاحظة التالية.

(٢٠٦) قد انتشرت في الأدب العربي النثري والشعري عبارات تشبّه الثقيل بالرقيب، الذي يفاجئ الأحباء وبالواشي على الأحباء (طلوع رقيب، طلعة رقيب، واشٍ على عاشق إلخ) وكذلك بفقد الحبيب وبالهجر، أي هجر الحبيب، وكذلك بالغريم الذي يطالب بسدّ الدّين، وكذلك بالكساد والإفلاس: أبو المطهر الأزدي، المصدر المذكور، ص ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٤٠ (يا طلعة رقيب، يا ثقل ديْن، يا أبرح من غمّ الدين، نظر المفلس في وجه غريم، أكره من غريم أتى على ميعاد)، ابن المرزبان، «كتاب الثقلاء»، انظر أعلاه، ص ١١٧؛ أبو هلال العسكري، «جمهرة الأمثال»، القاهرة، ١٩٦٤، ج ٢، ص ٢٣١ (أثقل من العذول ـ والعذول هنا المرأة التي توبّخ المحبّين)؛ الحصري، «زهر الآداب»، الطبعة المذكورة، ص ٤٤١ ـ ٤٤٢؛ و«جمع الجواهر»، الطبعة المذكورة، ص ٢٨؛ الثعالبي، «سحر البلاغة»، الطبعة المذكورة ٧٤ ـ ٧٥ (ما هو إلا غداة الفراق، وكتاب الطلاق، وموت الحبيب... وكذلك: حضور الغريم وحصول الرقيب)؛ و«ثمار القلوب»، الطبعة المذكورة، ص ١٥٢، حيث نجد نفس البيتين؛ وانظر المصدر نفسه، ص ٦٦٨؛ الرقيق القيرواني، المصدر المذكور، ص ٣٦٢ (يوم الفراق)؛ الراغب الاصفهاني، «محاضرات الأدباء»، الطبعة المذكورة، ج ٢، ص ٧٠٠ ـ ٧٠١؛ وكتابه «مجمع البلاغة»، مخطوطة طوبقبو، احمد، ٢٣٩٠، ٨٠١٧، ورقة ١٠٥ و (طلوع رقيب، نهوض حبيب، الغريم المقتفي...)؛ الميداني، المصدر المذكور، ج ١، (أثقل من رقيب بين محبّين)؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة ايا صوفيا، O/٣٩٨٤، ورقة ١٥٧ ظ؛ المعري الشافعي، مخطوطة «بهجة السرور» المذكورة، ج ١، ورقات ٢١ ظ، ٢٤ و، ٢٧ و؛ وانظر كذلك ابن =

[. . .][207]

وقيل لبعض الحكماء: لم صار الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؟ قال: لأن الحمل الثقيل يشارك الروح البدن في حمله والثقيل ـ تنفرد الروح بحمله وحدها[208].

= مباركشاه، «سفينة»، مخطوطة فيض الله، ١٦٢٨، ورقة ٧٦ ظ (أثقل من واشٍ على عاشق)؛ الخلوتي، «نزهة الأخيار»، مخطوطة كمبريدج، القسم الشرقي، ٨/ ١٤٥٤، ورقة ٤٣ و ـ ٤٣ ظ (فقد الحبيب، طلعة الرقيب، طلوع الرقيب)؛ مؤلف مجهول، «نزهة الأدباء»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١٣٥٧، ورقة ٦٧ ظ (الرقيب على العاشق، الغريم على المفلس)؛ الحفناوي البساري، «بغية الجليس»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٤٨، ورقة ٥٨ ظ؛ مؤلف مجهول، «الروض الناضر»، نفس المكتبة والمجموعة، ٣٥٨١، ورقة ١٧٤ ظ (مع نفس البيتين).

(٢٠٧) حذفنا هنا بيتين يتناولان موضوع البخل.

(٢٠٨) قد صيغت هذه «الحكمة» كأنها نصيحة طبّية تتعلق بماهية جسم الإنسان والفرق بين الجسم والروح في تحمّل الثقالة... وقارن ذلك مع تحديد الثقالة بأنها «حمى»، أعلاه، ملاحظة ١٧٥ (في كلتا الحالتين نجد بين «الرواة» الذين تنسب إليهم الحكمتان أطبّاء مشهورين إلى جانب بعض الشخصيات السياسية). انظر: ابن عبد ربّه، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٩٥، نفس الحكمة، عن جالينوس؛ أبو حيان التوحيدي، «البصائر والذخائر»، الطبعة المذكورة، ج ٣، ص ٦٣٣، عن أبي مخلد (وقارن مع الزمخشري، أدناه، عن أبي مجلز ـ والحروف قد تتشابه...) ضمن محادثة جرت بينه وبين «رجل مدني»، ابن المرزبان، «كتاب الثقلاء»، حسب مقالة المغربي المذكورة، ص ٤٦٢، عن المأمون في محادثة جرت بينه وبين جلسائه؛ الرقيق القيرواني، المصدر المذكور، ص ٣٦١، عن «بعض الحكماء»؛ الراغب الاصفهاني، «محاضرات الأدباء»، الطبعة المذكورة، ج ٢، ص ٧٠١؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار»، المخطوطة المذكورة، ورقة ١٥٧ و، عن أبي مجلز (وقارن مع أبي حيان التوحيدي، =

وقال أحمد بن الحسين: علامة الثقيل أنه يطيل الجلوس، ويصدع الرؤوس، ويوحش النفوس(٢٠٩).

= أعلاه: عن أبي مخلد)؛ المعري الشافعي، مخطوطة «بهجة السرور» المذكورة، ج ١، ص ٢٢ و، عن بزرجمهر، وزير كسرى انوشروان؛ الأرموي الخازندار، «آداب السياسة»، مخطوطة كويريلي، ١٢٠٠، ورقة ٥٢ و، عن كسرى انوشروان نفسه (!)؛ الوطواط، «غرر الخصائص»، الطبعة المذكورة، ص ٤٥٤، الكتبي، وهو أديب لخّص كتاب الوطواط، «غرر الخصائص الواضحة»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٣٦٣٠، في الوقتين ١١١ ظ ـ ١١٢ و، عن أرسطوطاليس؛ وكذلك تلخيص آخر: لمحمد بن قاسم بن الخطيب، «روض الأخيار»، القاهرة، ١٢٨٠هـ، ص ٢٢٣، عن كسرى انوشروان؛ السيوطي، «اتحاف النبلاء»، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٣٤٧، ورقة ١٠٨ و، نقلاً عن ابن عبد ربّه؛ المقرئ، «بلوغ الآداب»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٩٤، ورقة ٨٧ ظ؛ مؤلف مجهول، «المختار من نوادر الأخبار»، مخطوطة نفس المكتبة والمجموعة، ٣٤٩١، ورقة ١١٣ ظ؛ مؤلف مجهول، «الروض الناضر»، مخطوطة نفس المكتبة والمجموعة، ٣٥٨١، ورقة ١٧٤ و؛ الحفناوي البساري، «بغية الجليس»، مخطوطة نفس المكتبة والمجموعة، ٣٤٤٨، ورقة ٥٧ ظ؛ مؤلف مجهول، بدون عنوان، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١١٤١٢، ورقة ١١ و؛ مؤلف مجهول، «نزهة الأدباء»، مخطوطة نفس المكتبة والمجموعة، ١٣٥٧، ورقة ٦٧ و، ومخطوطة كمبريدج، القسم الشرقي، ٨/١٢٥٦، ورقة ١٩٥ و. ومن الجدير بالذكر أن في بعض المخطوطات المتأخرة المذكورة، مثل «المختار من نوادر الأخبار»، ما يظهر بأنه تحريف: «لم كان الرجل الثقيل أثقل من الجمل الميّت؟»، وربما تطورت كلمة «الجمل» الثقيل من «الحمل» الثقيل الذي يرد في المصادر القديمة، إلا أنه يوجد، حتى في هذا التحريف، نوع من «الخلق الأدبي»... وله مع ذلك أساس في الأمثال القديمة: المفضل الضبي، «أمثال»، استانبول، ١٣٠٠هـ، ص ٥٨ ـ ٥٩: أثقل من دهيم (ودهيم ـ ناقة).

(٢٠٩) الرقيق القيرواني، المصدر المذكور، ص ٣٦٥؛ مؤلف مجهول، «نزهة =

وقيل: من العجائب ـ حجّام قليل الفضول، ومكارٍ[٢١٠] حسن الخلق، وصاحب شرطة يصوم الخميس والإثنين، وأسود لا يشرب الخمر، ومعلم صبيان عاقل، ومجلس يُثنى فيه على عليّ ومعاوية ولا يعربد فيه أحد، وأحدب ثقيل[٢١١]. وكوسج لا يكون خبيثاً، وطويل عاقل، وطفيلي معربد، وحائك قليل الكلام، وأعمى ذو حياء، وملاّح مستور العورة[٢١٢].

= الأخيار»، مخطوطة فاتح، ٤١٣٥، ورقة ٩١ ظ؛ مؤلف مجهول، «نزهة الأدباء»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١٣٥٧، ورقة ٦٦ ظ؛ مؤلف مجهول، «الروض الناضر»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٨١، ورقة ١٧٥ و؛ وينسب بعض المؤلفين المذكورين هذا القول إلى أبي العلاء المعري، إلا أن الرقيق القيرواني، وهو أقدمهم، لم ينسبه إليه.

(٢١٠) ومكاري (ر، ط).

(٢١١) ذلك ما برّر اختيار المؤلف لهذه الفقرة التي لا علاقة لها بالثقالة والثقلاء باستثناء «وأحدب ثقيل».

(٢١٢) توجد عبارات تشبه ما ورد في هذه الفقرة، وذلك عند ابن المرزبان، المخطوطة المذكورة أعلاه ص ١١٦، ورقة ٢١ظ (وينقص ذلك في مقالة المغربي المذكورة)؛ ويقتبس ذلك السيوطي، «اتحاف النبلاء»، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٤٧٤، ورقة ١٠٩ و؛ وانظر كذلك الثعالبي، «التمثيل والمحاضرة»، الطبعة المذكورة، ص ٣٢٤: ومن العجائب أعمش كحّال وأعمى منجم؛ الراغب الاصفهاني، «محاضرات الأدباء»، الطبعة المذكورة، ج ٢، ص ٤٦٠، [عجائب:] حجّام قليل الفضول... لحياني ينتف لحية كوسج... منجم أعمى، منادٍ أخرس، كحّال أرمد؛ الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة دار الكتب بالقاهرة، ١٥٥ ـ ادب، ورقة ٣١٦ ظ ـ ٣١٧ و: العميان أكثر الناس نكاحاً إلخ؛ مؤلف مجهول، «الروض الناضر»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٨١، ورقة ١٧٥ ظ؛ مؤلف مجهول، «حلية الكرماء»، مخطوطة نفس =

ومن أحسن ما وصف به ثقيل قول الحسين[٢١٣]: ما الدين على الأعسار[٢١٤]، والصوم في الأسفار ـ بأثقل من فلان[٢١٥].

وقال أيضاً: فلان يحكي[٢١٦] ثقل الحديث المعاد، ويمشي على القلوب والأكباد، وجهة أيام المصائب، وليالي النوائب، كما أن قربه فقد الحبائب، وسوء العواقب، وعدم الحياة[٢١٧]، وموت

= المكتبة والمجموعة، ٣٤٧٦، ورقة ٣٤٠ و: العجب في القصار، والبركة في المرابيع، والثقالة في العميان.

(٢١٣) وعند الزمخشري، «ربيع الأبرار» المخطوطة المذكورة، ورقة ١٥٧ و، الراوي هو العباس بن الحسن العلوي.

(٢١٤) وفي بعض المصادر (كالثعالبي والراغب الاصفهاني) المذكورة في ملاحظة ٢٠٦ أعلاه والملاحظة التالية: الاقتار.

(٢١٥) كثرت في الأدب العربي العبارات التي تشبّه الثقيل بالديْن والإفلاس، وقد ورد ذكرها أعلاه، ملاحظة ٢٠٦. والتشبيه بصعوبة الصوم والإفطار الصعب: البستي، «روضة العقلاء»، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٦٤ ـ ٦٥؛ أبو المطهر الأزدي، المصدر المذكور، ص ١٢٠؛ الثعالبي، «سحر البلاغة»، الطبعة المذكورة، ص ٧٤؛ و«خاصّ الخاصّ»، الطبعة المذكورة، ص ٤٨؛ والزمخشري، في المخطوطة والورقة المذكورتين؛ الحفناوي البساري، مخطوطة «بغية الجليس» المذكورة، ورقة ٥٨ ظ؛ مؤلف مجهول، مخطوطة «الروض الناضر» المذكورة، ورقة ١٧٥ و؛ البابصري، «المختار من كتاب نزهة الناضر»، مخطوطة اسكوريال، ٧٠٦ ـ Cas (وتشمل هذه العبارات مثلاً على: إفطار الصائم على الخبز البحت، الصوم في البستان، مواصلة الصوم في الاسفار وحلول الديْن على الاقتار، صوم السفر، شدة السقم في الأسفار، العلل في الأسفار... وكل ذلك تشبيه لثقالة الثقلاء).

(٢١٦) أي: يحاكي، يشبه.

(٢١٧) الحصري، «زهر الآداب»، الطبعة المذكورة، ص ٤٤١: وكأنما وصلة عدم الحياة...؛ وانظر كذلك الثعالبي، «سحر البلاغة»، الطبعة المذكورة، ص ٧٤.

الفجأة، واعجباه[218] من جسم كالخيال[219]، وروح كالجبال[220]، هو من بين العين والجفن كالقذاة[221]، وبين

---

(٢١٨) الحصري، المصدر المذكور، الصفحة المذكورة: يا عجبي؛ وانظر الثعالبي، المصدر المذكور، الصفحة المذكورة.

(٢١٩) كالخلال (ط).

(٢٢٠) ونكرّر هنا أن تشبيه الثقيل والثقالة بالأشياء الثقيلة (انظر أعلاه، ص ١١٤) أو الآلات الثقيلة، كرحى البزر والمثقلة (أعلاه، ص ٨٨) والجبال الكبيرة شائع في كل المصادر الأدبية المذكورة. وانظر علاوة على مجاميع الأدب هذه، كتب الأمثال: أبو هلال العسكري، «جمهرة الأمثال»، الطبعة المذكورة، ج ١، ص ٢٩٢؛ الميداني، «مجمع الأمثال»، الطبعة المذكورة، ج ١، ص ٢١٤ ـ ٢١٦؛ الزمخشري، «المستقصى»، الطبعة المذكورة، ج ١، ص ٤١ ـ ٤٣.

(٢٢١) الجفن والعين (ط)؛ وعند الحصري، المصدر المذكور، الصفحة المذكورة، والثعالبي، المصدر المذكور، ص ٧٥: قذاة (بدلاً من: كالقذاة في نصنا). أما عن أمراض العين وما يعتريها من آلام فانظر أعلاه، ملاحظة ١٩١. وانظر كذلك (علاوة على المصدرين المذكورين: الحصري والثعالبي): ابن عبد ربّه، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٩٩: كما تبرمت الأجفان بالرمد، من شعر أبي تمام، حسب ما ينسبه إليه ابن عبد ربّه، ولكن البيت غير موجود في «ديوان أبي تمام»، القاهرة، ٥ ـ ١٩٦٤؛ والمعري الشافعي، المخطوطة المذكورة، ج ١، ورقة ٢٤ و، ينسبه إلى شاعر مجهول... كما أنه يورد في ورقة ٢١ ظ اقتباسات من شعر ابن الرومي (تتقذاه طالعاً كل عين، وذلك يشبه ما ورد في نصنا هنا) واقتباسات نثرية عن المبرد وعن سفيان الثوري، عن الرمد في العين وعن الاكتحال ضد أذى الثقلاء... (ويتكرر ذلك عند ابن الجوزي، «أخبار الظراف والمتماجنين»، النجف، ١٩٦٧، ص ٨٦)؛ ابن المرزبان، المخطوطة المذكورة أعلاه، ص ٩٥؛ وكذلك الراغب الاصفهاني، «مجمع البلاغة»، المخطوطة المذكورة، ورقة ١٠٥ و: قدح اللبلاب في عين المريض (في حين أن أبا هلال العسكري، «جمهرة الأمثال»، الطبعة المذكورة، ج ١، ص ٢٤٤، يورد نفس العبارة ولكنها لا تخصّ عين المريض؛ وعند أبي =

الأخمص والنعل كالحصاة، ما هو إلاّ غداة فراق، وكتاب الطلاق، وموت الحبيب، وطلوع الرقيب[٢٢٢].

بقذى العين أبو الحسن بن المنجم يصف ثقيلاً: مرحبا[٢٢٣] بقذى العين[٢٢٤]، وشجا[٢٢٥] الحلق، وغصّة الصدر[٢٢٦]، وعظم اللقمة، وشعرة القلم، وعثرة المنقرس، وذبابة القرحة.

[الخفيف]

ونـــديـــم كـــأنـــه غـــصـــص الـــمـــو
ت[٢٢٧] يـميت الـهوى ويـشـجي الـعـلـيلا
يـذكـر الـديـن والـخـصـومـة فـي الـديـ
ن[٢٢٨] وقـد حـازت الـكـؤوس الـعـقـولا

= المطهر الأزدي، المصدر المذكور، ص ١٢٠: قدح اللبلاب في يد المريض!).

(٢٢٢) انظر أعلاه، ملاحظة ٢٠٦.

(٢٢٣) يشبه النص هنا ما ورد عند الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة ايا صوفيا O/٣٩٨٤، ورقة ١٥٧ ظ.

(٢٢٤) انظر أعلاه، ملاحظة ٢٢٠.

(٢٢٥) في الأصل: شجى، بالألف المقصورة، وعند الحصري، «جمع الجواهر»، الطبعة المذكورة، ص ٢٩: كالشجا المتعرض في حلقة. وعند الزمخشري، «ربيع الأبرار»، الورقة المذكورة: ما هو إلا قذى العين وشجى الحلق.

(٢٢٦) وعنده. غصة الصدور. انظر كذلك الملاحظة التالية.

(٢٢٧) أبو هلال العسكري، «ديوان المعاني»، القاهرة، ١٣٥٣هـ، ج ١، ص ١٨٩ (في بيت شعر): وثقيل أشدّ من غصص الموت وانظر الملاحظة السابقة.

(٢٢٨) هنا الدِين بكسر الدال (وليس الدَين بفتح الدال كما ورد أعلاه، ملاحظة ٢٠٦).

ويـصـلّـي فـي غـيـر وقـت صـلاة
لـيـس إلاّ لـكـي يـكـون ثـقـيـلا
لـيـتـه شـجّـنـي وقـام إلـى الـبـا
ب وأضـحـى الـشـيـطـان مـنـه بـديـلا

[. . .][٢٢٩]

وقيل لحكيم[٢٣٠]: ما أعمّ الأشياء نفعا؟ قال: موت الثقلاء!

وقال حكيم: العاقل بخشونة العيش مع اللطف ـ آنس منه بلين العيش مع الثقلاء[٢٣١].

وانحدر[٢٣٢] خالد بن صفوان مع بلال بن أبي بردة إلى البصرة، فلما قربا[٢٣٣] من البطيحة قال بلال لخالد بن صفوان[٢٣٤]: أتستثقل[٢٣٥] عكابة[٢٣٦] النميري[٢٣٧]؟ قال: كدت والله، أيها

---

(٢٢٩) حذفنا هنا نكتتين لا علاقة لهما بموضوع الثقلاء وإنما تصفان «سذاجة» الأعراب.

(٢٣٠) بحكيم (ط).

(٢٣١) انظر الراغب الاصفهاني، «محاضرات الأدباء»، الطبعة المذكورة، ج ١، ص ١٥؛ الحفناوي البساري، «بغية الجليس»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٤٨، ورقة ٥٨ و ـ ٥٨ ظ (يتكرر مرتين على شكلين مختلفين).

(٢٣٢) وردت الحكاية عند الحصري، «جمع الجواهر»، الطبعة المذكورة، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٢٣٣) عند الحصري: اقتربا.

(٢٣٤) لصفوان (ر) (ط).

(٢٣٥) انستثل (ر).

(٢٣٦) عكاية (ر) (ط). وانظر أدناه، ملاحظة ٢٤٠.

(٢٣٧) النمري (ر) (ط)، النميري (عند الحصري).

الأمير، تصدع قلبي! حين دنونا من آجام البطيحة وعكر البصرة وغثاء البحر ـ دكرت لي رجلاً هو أثقل على قلبي من شرب الأيارج بماء البحر[٢٣٨] بعقب التخِمة[٢٣٩]. وكان عكابة بن نميلة[٢٤٠] هذا أهوج، جاهلاً، مغفّلاً، دخل يوماً على بلال فرأى ثوراً مجللاً في ناحية الدار، فقال: ما أفره هذا البغل، إلاّ أن حوافره مشققة.

وإلى هنا انتهى الكلام على الثقلاء والطفيليين والبخلاء، وتعب اليراع، من ثلب هؤلاء الرعاع، وما لهم من قبيح الطباع، فإنهم قوم لا يرهبون القدح، ولا يطربون للمدح...

---

(٢٣٨) أبو المطهر الأزدي، «حكاية أبي القاسم»، الطبعة المذكورة، ص ١١٩، يقول للثقيل: يا شربة اليارج؛ الثعالبي، «خاصّ الخاصّ»، الطبعة المذكورة، ص ٤٨: شرب الهليلج.

(٢٣٩) عند الحصري كذلك: بعقب التخمة وساعة الحجامة.

(٢٤٠) عند الحصري، حسب تحقيق علي البجاوي: غيلة، وعندنا: نميلة (ر) (ط)، وربما هو الصحيح (الطبري، «تأريخ الرسل والملوك»، ليدن، ١٨٧٩ ـ ١٩٠١، سلسلة ٢، ص ١٧٢٣، يذكره باسم: عكابة بن نميلة!).

الملاحق

في ملاحظاتنا على النصوص أعلاه لم نذكر فقط الروايات المختلفة في المصادر المطبوعة والمخطوطات، وإنما أوردنا عدداً لا بأس به من المتشابهات في الفكرة العامة أيضاً (مثل تفرّع تشبيه المعاناة من الثقالة والثقلاء بأنواع الآلام والأمراض... والعمى...)؛ وعليه أمكننا حذف الهوامش الطويلة من الملاحق هنا وإيراد النصّ كما هو في المخطوطات، وذلك لعدة أسباب:

- الإستمتاع بقراءة النصّ بسرعة ويسر، وهذا بالذات أمر مستحسن عند قراءة الموادّ الهزلية...

- الوقوف، من خلال هذه النصوص، على مستويات أسلوبية شتى: الأسلوب العالي الذي يمثل استمراراً للنقل الإبداع الأدبي، سواء في النثر الفني المتطور والشعر الحافل بالبديع، إلى جانب أسلوب النوادر «التلقائية»، التي يتجلى فيها تأثير الأدب الشفهي، متمثلاً بعض الأحيان في التغيير الحقيقي أو، على الأقل، الصياغة الجديدة...

- التعرف، من جديد، على كيفية تبدّل شخصيات النوادر ورواتها بعضهم ببعض، مع مرور الزمن (النوادر القديمة مثلاً لا

تنسب بعد إلى نفس الشخصيات التي تنسب إليها في بعض المصادر المتأخرة نسبياً).

ـ إظهار استمرارية الإنتاج حتى القرن الثامن عشر، في طرائف متنوعة (الأدب الراقي وزخارفه، إلى جانب الأدب الشعبي كالنكتة الواردة في ملحق ٥ التي تذكر فيها مدينة قليوب).

ملحق ـ ١

فصل عن الثقلاء من كتاب «بهجة السرور في غرائر المنظوم والمنثور» لمحمد بن أحمد بن علي المعري الشافعي [مخطوطة طوبقبو، أحمد، ٢٣١٩، ٨٥٧٨ ورقات ٢٠ ظ ـ ٢٨ و]:

قال ابن قتيبة: كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا استثقل رجلاً قال: اللهم! اغفر له وارحنا منه!

قيل: وكتب رجل على خاتمه: ابرمت فقم! فكان إذا جلس إليه ثقيل ناوله إياه.

كان الأسود بن سليم إذا رأى ثقيلاً غمض عينيه وقال: استراح العميان. قال الأعمش: إذا كان عن يسارك في الصلاة ثقيل فتسليمة واحدة عن اليمين تجزئك!

قال عبد الرحمن، ابن أخي الأصمعي: دخل ثقيل إلى عميّ، فلمّا أراد النهوض قال أتأمر بشيء؟ قال: نعم! أن لا تعود إليَّ!

وقلت في بعض الثقلاء:

لنا صاحب لا طوّل الله عمره ... خبير بطرق الشرّ عن رشده عمي

أتانا فقلنا: لا تجئ نحونا ولا ... تنكّد علينا العيش يا شرّ مجرمِ

فقال وأبدى غلظة وفظاظة: إلى أيّ أرض غير ذي الأرض ارتمي
فقلت له: اذهب لا رجعت مسلّماً إلى حيث ألقت رحلها أمّ قشعمِ

وقلت إيضاً في بعضهم:

ثقيل براه الله أثقل من عشا وما شغله إلاّ أذاه لمسلمِ
أتاني فقلت: ارجع وراءك! قال لي: إلى أين أمضي؟ قلت: نحو جهنّمِ

قال بعض الأدباء:

ما السّقم في سفر والدّين مع عدم يوماً بأثقل منه حين يلقاني
ما لي معين عليه حين أبصره غير الصّدود وتغميضي لأجفاني

وقال أبو نواس:

ثقيل يطالعنا من أمم إذا سرّه رغم أنفي ألمّ
لطلعته وخزة في الفؤاد كوخز المشارط في المحتجم
أقول له إذ أتى، لا أتى ولا حملته إلينا قدم!
فقدت خيالك لا من عمىً وصوت كلامك لا من صمم

وقال ابن الرومي:

وثقيل كأنه ثقل ديْن تتقذّاه طالعاً كلّ عين
حمّل الله أرضه ثقليها وتراه علاوة الثّقلين

[. . .]

تزلزلت الأرض لمّا مشى فتى ما له مشية في الثقل
وقالت: أيا ربّ ما جرمتي تحمّل ظهري هذا الجبل

قيل لبزرجمهر: لما صار الرجل الثقيل أثقل على الإنسان من الحمل الثقيل؟ قال: لأن الحمل الثقيل يشارك البدن الروح في حمله، والرجل الثقيل تنفرد الروح بحمله.

قال المبرّد: قال الرياشي: الثقيل جسمه على الأرض وثقله على القلب.

قال ثقيل لأعمى: إن الله لم يأخذ من عبد كريمته إلا عوّضه منهما شيئاً، فما الذي عوضك؟ قال أن لا أراك!

اعتذر ثقيل إلى بعض الناس لتأخره عن زيارته فقال: ما رأيت إحساناً يعتذر منه قبل هذا اليوم.

وقلت في هذا المعنى:

ثقيل جفاني ثمّ زاد وقال لي خذ العذر من قطعي زيارة مولانا
فقلت لقد أحسنت إذ لم تزر وهل يرى عذر من أولى جميلاً وإحساناً

بعض الأدباء:

وصاحب لا خير في قربه مختصر في ذمّه الشّرح
قد قلت لمّا جاءني هجرة: قد جاء نصر الله والفتح

وقلت [إذن، المؤلف لا يكتفي بالنقل فحسب]:

قد لام بعض أصحابي عندما ذكرت لديه أبيات شعر أنا منشيها:
جميعها في ثقال العصر، قلت له: لو ابتليت بلائي قلت: زد فيها!
ما يعرف الشّوق إلاّ من يكابده ولا الصّبابة إلاّ من يعانيها

وقلت:

يا من أتاني قاصداً ودّي له [أن] أبذله
لا تسألنَّ محبّتي ما في المحبة مسأله

قال بختيشوع الحكيم للمأمون: لا تجالس الثقلاء فإنا نجد في الكتب أن مجالسة الثقيل حمى الروح.

وقد حكي ذلك عن جالينوس أيضاً وعن بشر بن الحارث رضي

الله عنه أنه قال: رؤية الثقيل حمى باطنة.

قال جحظة: انتقل إلى جواري ثقيل فتهدم من حائطي ما يليه، [...] فقيل لجحظة: هل سبقت إلى هذا المعنى؟ قال: نعم! قلت لأستاذي: ما بالك في عارضك الأيمن الشيب أكثر؟ فقال: لي جليس ثقيل يجلس عن يميني.

فقال بعض الحكماء: إن الثقيل يجالسني فأبغض شقي الذي يليه.

قيل لأبي سعيد المخزومي: هل تعرف أثقل من الثقيل؟ قال: نعم! من لا يستثقله!

قال زين الدين بن الوردي في ثقيل:

حمّى فلان أطبقت ليتها ... دامت فزادت كبره كبتا

وقال: دعني ما أني طيّبا ... فقلت: خبرّني متى طبتا

قال غلام لأبيه: يا ابت أخبرني مستملي أبي خثيمة أن أبا خثيمة يستثقلني. فقال له يا بني! فأنت إذا ثقيل الإسناد!

كان بعض الناس إذا رأى ثقيلاً أغمض عينيه وقال: استراح العميان.

وقال القاضي الأسعد المصري في ثقيل:

حكى شيئين ما في الأر ... ض من يحكيهما أبداً

حكى في خلقه ثوراً ... وفي أخلاقه بَرَدَى

وأخذ هذا من قول بعضهم

ضاهى ابن بشرانٍ مدينة جلّق ... فكلاهما يوم الفخار فريد

ألفاظه بردى وصورة خلقه ... ثور ونقض العقل منه يزيد

جلس ثقيل إلى جانب ظريف فقال له لعلي ضيقت عليك فقال: الله يعلم أنك تضيق عليّ وأنت في بيتك!

كان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه إذا استثقل إنساناً قال:

وما الفيل تحمله ميّتا بأثقل من بعض جلاّسنا

قال:

إذا ما بدا لي طالعاً فكأنه طلوع غريم أو حضور رقيب
وإن جاء نحوي قاصداً خلت أنه كتاب بعزل أو فراق حبيب

قال الحارثي:

مُرَّ عنّا فإنما أنت فينا واو عمرو أو كالحديث المعاد

قال غيره:

يا من تبرمت الدّنيا بطلعته كما تبرّمت الأجفان بالرمد
يمشي على الأرض مختالاً فأحسبه لبغض طلعته يمشي على كبدي

وقال آخر لرجل ظريف: ما بلغ من بعضك للثقلاء؟ قال أرى الثقيل في نومي فأبول في ثوبي.

شرب ثقيل عند رجل نهاراً فلما أمسى لم يأته بسراج. فقال له: أين السراج؟ قال: إن الله تعالى قال: «وإذا أظلم عليهم قاموا».

قال الأصمعي: استثقل رجل رجلاً هو عنده فلما أطال الجلوس ولم يخرج بالحجام، فلم يبرح، فقال: احلق رأسي! فلما سمع الثقيل صرير الموس قال: لم حلقت شعرك؟ وكان حسناً، فقال: قم عني وإلا حلقت لحيتي.

وقال ابن الرومي:

لنا صديق كلا صديق غث على أنّه سمين

إذا بـدا وجـهـه لـقـوم لاذت بـأجـفـانـهـا الـعـيـون

وقال بعضهم:

وأنـت عـلـى مـودّتـنـا حـريـص ولـكـن لا تـخـفّ عـلـى الـفـؤاد

وأثـقـل مـن رحى بـزر عـلـيـنـا كـأنـك مـن بـقـايـا قـوم عـاد

أرحـنـا مـن لـقـائـك كـلّ يـوم وسـر نـحـو الـجـحـيـم بـغـيـر زاد

فـأنـت الـمـرء تـبـرمـنـي نـهـاراً ويـفـزعـنـي خـيـالـك في رقـاد

ولشرف الدين بن حسين بن ريّا [؟] الطائي الحلبي:

لـنـا صـديـق ثـقـيـل يـذيـب بـالـهـمّ قـلـبـي

وجـدتـه يـتـشـكّـى مـن ظـهـره بـيـن صـحـبـي

فـقـال: ظـهـري وجـيـع فـقـلـت يـبـريـه ربّـي

وله:

ثـلاثـة مـثـل بـدور الـدّجـى ما ضرهم لو صحّ لي قلبهم

قد جلسوا في موضع جملة وما صفا لي في الهوى قلبهم

فـجـاءهـم شـخـص بـذقـن فـهـم ثـلاثـة رابـعـهـم كـلـبـهـم

[...]

وكان بعض الظرفاء يقول في الثقلاء: أوتاد الأرض.

قال بشار بن برد [والشروح في الأصل]:

ربّـمـا يـثـقـل الـجـلـيـس وإن كـا ن خـفـيـفـاً فـي كـفّـة الـمـيـزان

ـ كفة الميزان بكسر الكاف ـ

ولـقـد قـلـت حـيـن وتّـد فـي الأر ض ثـقـيـل أربـى عـلـى ثـهـلان

ـ ثهلان اسم جبل ـ

كـيـف لـم تـحـمـل الأمـانـة أرض حـمـلـت فـوقـهـا أبـا سـفـيـان

[وقال. . .]

وثـقـيـل أتـى إلـيّ وقـالا قل قريضاً أسمعه منك ارتجالاً

قلت: أنت الذي تعادل ثقلاً سبع أرضين والسّما والجبالا

قال الخثعمي:

قالوا: فلان عليل فقلت ذا لا يكون

ما قال ذلك إلاّ مخبل ـ مجنون

أتهتدي، يا لقومي، إلى المنون المنون؟!

وقال أبو نواس [والشروح في الأصل]:

وصاحب أثقل من أُحدٍ قرينه مذ كان في جهدِ

علامة الثّقل على وجهه بيّنة مذ كان في المهدِ

ـ الثقل بكسر الثاء وفتح القاف ضد الخفة ويقال ـ ثقل يثقل ثقلاً مثل صغر يصغر صغراً وسكن أبو نواس القاف ضرورةً، والثقل بكسر الثاء وسكون القاف، وأحد الأثقال، مثل حمل وأحمال ـ

لو دخل النار طفئ حرها ومات من فيها من البرد

ـ قوله طفئ بفتح الطاء وكسر الفاء ثم بعده همزةٌ ساكنة للضرورة وأصلها الفتح لأنه فعل ماض ويجوز أن تبدل ياء وسكونها للضرورة أيضاً ـ (كان لبعض الظرفاء ثلاثة بنين ثقلاء، فقيل له: أي بنيك أثقل؟ فقال: ليس بعد الكبير أثقل من الصغير إلاّ الأوسط!

قيل: كان عبدالله بن المبارك، رضي الله عنه وعن أبيه المبارك، يستثقل رجلاً، فأقبل إليه الرجل ذات يوم وهو قاعد، فقام عبدالله، رضي الله عنه، فدخل منزله، فجاء الرجل فأخذ رقعة فكتب فيها:

هل لذي حاجة إليك سبيل لا طويل قعوده بل قليل

قال: فكتب في الرقعة عبد الله رضي الله عنه:

أنت يا صاحب الكتاب ثقيل وقليل من الثّقيل طويل

[. . .]

وقال الصفي الحلي [والشروح في الأصل]:

إذا بلي اللّبيب بقرب فدم تجرع منه كاسات الحتوف

ـ يقال: رجل فدم، أي: عيّ، ثقيل، بيّن الغدامة والفدومة ـ

فذو الطّبع الكثيف بغير قصد يضرّ بصاحب الطّبع اللّطيف

وذاك لأنّ بينهما اختلافاً ينافي العقل بالجهل العنيف

فداء الجهل ليس له دواء كحمّى الرّبع في فصل الخريف

ـ الربع في الحمى، بكسر الراء، أن تأخذ يوماً وتدع يومين ثم تجيء في الرابع، تقول منه: ربعت عليك الحمى، لغة في ربعت، وقد أربع، لغة في ربع ـ

[. . .]

وقلت:

وقالوا ـ فلان قد غدا في دمامة وسيئ أفعال له مشبه الكلب

فقلت لهم لم تنصفوا الكلب، أنّه يراعي، وإن تجفي المودّة، للصّحب

قال صاحبنا بدر الدين حسن بن حبيب:

يا لقومي من ثقيل خارج ذي كلام، كم فؤاد كلّما

سرّ لما سار قلبي مدة ثمّ ما ودّع حتى سلّما

وقال بعض الأدباء:

لو كنت ماء لم تكن بعذب أو كنت عيراً لم تكن بندب

أو كنت لحماً كنت لحم كلب أو كنت سيفاً لو تكن بعضب

وقال العطوي:

أنت لو كنت كلاماً ... كنت من بعض مُحاله
أو فعالاً كنت من غد ... ر حبيب واعتلاله

وقال زين الدين بن الوردي:

لي صاحب واسمه سراج ... ما مرّ لي عنده قرار
لسانه محرق لقلبي ... إنّ لسان السّراج نار

[. . .]

وقلت وفيه تضمين:

لي صاحب ما في الثّقال شبيهه ... لكن إلى جهل وحمق ينسب
لو أن خفة رأسه في كعبه ... لحق الغزال ولم يفته الأرنب

[. . .]

مر رجل بصديق ومعه ثقيل، فقال له: كيف حالك؟ فقال:

وقائل كيف أنت؟ قلت له: ... هذا جليسي فما ترى حالي؟

وقلت هازلاً:

أصبحت يوماً كاتباً ... أهل الحماقة والثّقالة
ونسيت نفسي إذ أنا ... كنت المقّدم لا محالة

ملحق ـ ٢

فصل لمؤلف أندلسي من القرن الرابع عشر الميلادي

[من مخطوطة، بدون عنوان، لمؤلف مجهول، المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٩٥٨٧ ـAdd ورقات ١٣٢ و ـ ١٣٥]:

اعلم أن الثقلاء أشدّ الخلق ضرراً على العقلاء وأثقل من رواسي الجبال على قلوب النبلاء.

قيل لجالينوس: لم صار الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؟ فقال: لأن ثقله على القلب دون الجوارح، والحمل الثقيل يستعين القلب عليه بالجوارح...

وقال الأعمش: من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء، ونقش على خاتمه: يا مقيت! أبرمت فقم! فإذا استثقل جليساً ناوله إياه.

وربما أنشد:

فما الفيل تحمله ميتاً   بأثقل من بعض جلاسنا

وقال له رجل يوماً: مما عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء. ثم قال: قال جالينوس: لكل شيء حمى وحمى الروح النظر إلى الثقيل.

وقال ابن سيرين: سمعت رجلاً يقول: نظرت مرة إلى ثقيل فغشي عليّ من النظر إليه لأنه أثقل من الجبل.

وكان حماد بن زيد إذا استثقل جليساً قال: ربّنا اكشف عنا العذاب، إنا مؤمنون!

وكان يجلس إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى رجل ثقيل اسمه زنباع. فسأل رجل يوماً أبا عبيدة عن معنى الزنبعة في كلام العرب، فقال: التثاقل، وبذلك سمّي جليسنا هذا زنباعا...

وقال زياد بن عبدالله: قيل للشافعي: هل يحمى حر الروح؟ قال: نعم، من ظل الثقلاء...

وقال آخر يخاطب ثقيلا:

يا رحمة الله على آدم — رحمة من عمّ ومن خصصا
لو كان يدري أنه خارج — مثلك من احليله لاختصى

ولابن عطار الصنهاجي في ثقيل:

ليس من الناس ولكنه — يحسبه الناسي من الناس

[أي: فقط الناسي، الذي يميل إلى النسيان، يحسبه من الناس]

أثقل في أنفس أصحابه — من جبل راسٍ على رأسي

[أي: أثقل من الجبل الراسي الموجود على رأسي، بتخفيف الهمزة لضرورة الشعر].

ملحق ـ ٣

من كتاب «نزهة الأخيار في محاسن الأخبار» لمؤلف مجهول
[مخطوطة فاتح ٤١٣٥، ورقات ٩١ ظ ـ ٩٣ ظ]:

... ومما روي في أخبار الثقلاء:

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان إذا حضر مجلسه رجل ثقيل يقول: اللهم اغفر له وأرحنا منه!

وقال أبو العلاء المعري: علامة الرجل الثقيل أن يطيل الجلوس عند من لم يكن إليه حاجة ويكثر الكلام مع استنجاس [في الأصل: استنحاس] النفوس منه.

قيل شخص من الأعيان قد اعتلّ علة شديدة وكان [تكرر في الأصل: وكان] يعوده فيها رجل ثقيل يعرف بالحميدي ويطيل الجلوس عنده. فلما طال على العليل أمره وجاء الثقيل على جاري عادته يستأذن عليه ليدخل قال [في الأصل: فقال] العليل: قولوا له: قد مات البارحة ودفن.

وكان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه إذا استثقل إنساناً قال:

وما الفيل تحمله ميّتاً بأثقل من بعض جلاّسنا

قيل: جلس ثقيل إلى جانب شخص لطيف فقال الثقيل: لعليّ قد ضيقت عليك، فقال له: الله يعلم إنك تضيق عليّ وأنت في بيتك.

قال بعض الحكماء: لا تجالسوا الثقلاء فإن مجالستهم حمّى الروح.

قيل: دخل بعض الثقلاء على الأعمش، وكان قد اعتلّ، فأطال الجلوس عنده ثم قال له، يا أبا محمد ما تشكو في علتك؟ قال: جلوسك عندي.

فأخذ بعضهم المعنى وقال:

وثقيل من الأنام بغيض   جاءني زائراً مع العوّاد
قال: ما تشتكي فقلت له قر   بك منّي فداوني بالبعاد

قيل: شرب بعض الثقلاء عند شخص من الظرفاء فلما مضى النهار وأتى الليل فلم يوقد [في الأصل: يعد، مع تصليح بحبر أحمر: يوقد] المصباح قال [في الأصل: فقال] له: أين المصباح؟ فقال له صاحب البيت: الصباح! قال الله تعالى: «وإذا أظلم عليهم قاموا».

فقال بعضهم في ثقيل:

أشكو إلى الله ثقيلاً أتى   من ثقله خفت على المجلس
أثقل من واشٍ على عاشق   صبّ ومن دين على مفلس

قيل: دخل ثقيل على الصاحب بن عباد فأطال عنده الجلوس وأبرم في المحادثة فلمّا أطال على الصاحب بن عباد كتب رقعة وأعطاها إياه، وإذا فيها:

إن كنت تزعم أنّ الدار تملكها   حتّى نقوم ونبغي غيرها داراً
وإن علمت بأنّ الدار نملكها   تنحّ عنها، لقد أكثرت إهداراً

ومن النكت اللطيفة: قيل أن ثقيلاً قال لبعض المغنين [في الأصل: المغاني] في مشاجرة جرت بينهما: والله ما تعرف الثقيل

الأول من الثقيل الثاني [الثقيل هنا ـ من مصطلحات الغناء والموسيقى]. فقال له المغني: كيف لا أعرفهما وأنا لا أعرفك وأعرف أباك من قبلك.

ونظم بعضهم في هذه الواقعة:

ألا يا ثقيل الخلق وابن ثقيلهم   أرى الثّقل طبعاً في أبيك وفيكا
أبوك إمام الناس في الثقل كلهم   وأنت وليّ الثقل بعد أبيكا

[على وزن: ولي العهد]

ومن النكت اللطيفة: قيل: مرض بعض الملوك فأتى بطبيب فحسّ نبضه [في الأصل: نبظه] فقال له: مزاجك معتدل ألا إني أرى فيك تكديراً وهل يجالسك ثقيل؟ قال نعم! قال الطبيب: هذا من ذلك!

[. . . وردت هنا في، في الأصل، موادّ لا تتعلق بالثقالة والثقلاء]

وقال بعضهم: مجالسة الثقلاء تبين الهموم وتجلب الغموم وتؤلم القلب وتضوي الأشباح عن النفوس اللطيفة.

وقال بعضهم في وصف الثقيل:

وفظّ غليظ القلب لا ودّ عنده   وليس لديه للأخلاء تأنيس
تواضعه كبر، تقرّبه جفا   وترحيبه مقت، وسرّاه تعبيس

وقال بعضهم في ثقيل أيضاً:

لو كان آدم عالماً غيباً بأن   ستكون من أولاده فيمن غبر
لأبان حوّى [=حواء] بالطّلاق ثلاثة   وأبى لأجلك أن يكون من البشر

ملحق ـ ٤

من «القمر الطالع» لعبد الكريم بن كمال الدين الأنصاري الخزرجي
[مخطوطة كمبريدج ٢٠٩ ـ Qq، ورقة ٤٠ ظ]:

وقال الحكماء أربعة تورث الضعف في الشخص، وهي: معاشرة البخيل، ومجالسة الثقيل، ومعالجة العليل، ووعد فيه تطويل.

وقد نظمها شيخنا يوسف المغربي رحمه الله فقال هذه الأبيات:

توقّ شرّ أربعة ففيها يكون الضعف قطعاً بالدليل
معاشرة البخيل وطول وعد علاج الطب مع نظر الثقيل

ملحق ـ ٥

من «نزهة الأدباء وسلوة الغرباء» لمؤلف مجهول
[مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١٣٥٧؛ من القرن الثامن عشر أو التاسع عشر (؟) ورقات ٦٥ ظ ـ ٦٧ ظ].

في نوادر الثقلاء والبغضاء:

روى محمد بن عياص [عياض؟] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان إذا ثقل عليه الرجل قال: اللهم اغفر لنا وأرحنا منه!

وقال بعضهم: الثقلاء أوتاد الأرض.

وقيل أن بعضهم كان له ثلاث [كذا في الأصل] بنين ثقلاء فقيل له: أيّ بنيك أثقل؟ فقال ما بعد الكبير أثقل من الصغير إلاّ الوسطاني.

وقيل لأبي العلاء أحمد بن الحسين الكوفي: ما علامة الثقيل البغيض؟ قال: يطيل الجلوس ويصدع الرؤوس ويوحش النفوس.

وقال بعضهم: موت المرأة المنافرة أحد الفتحين، ومعاشرة الثقيل أحد السقمين، والمنزل الضيق أحد السجنين.

وقال أحمد بن يوسف الكاتب: مجالسة البغضاء ترث الهموم وتجلب الغموم وتؤلم القلوب وتقعد النشاط وتطوي الأشارح.

وكان رجل ثقيل يجالس ابن المقفع وكان يكرهه فاحتجب عنه، فكتب إليه ذلك الثقيل يقول:

هل لذي حاجة إليك سبيل وقصير قعوده لا يطيل

فكتب إليه ابن المقفع في الجواب:

أنت يا صاحب الكتاب ثقيل وقصير القعود منك طويل

وقيل: مرض أبو علقمة وكان له ولد ثقيل بغيض وكان يتمعقر [أي يتقعر] في الكلام، فدخل عليه وقال: يا أبت السلام عليك! قل ـ لا اله إلا الله، مرّ في الأولى وخفف في الثانية وإن شئت قل ـ لأ له إلا الله وكلاهن جائز والأولى أحبّ إلى شيخنا سيبويه.

فصاح أبوه وقال له: يا ابن الزانية! دعني اتهنأ بالموت ولا تكفرني!

[وهنا تبدأ حكاية ذات صبغة شبه شعبية، نوردها كما وردت في الأصل بلغتها الأصلية. . .]

وحكي أن جماعة خرجوا من بلدهم إلى المدينة ومعهم رجل ثقيل طفيلي؛ فجلسوا على جانب البحر ليأكلوا سمكاً. فأخذ واحد منهم سمكة ووضعها على رأس الثقيل من غير علمه، فنزلت حداة فخطفت السمكة فتعلق شاش الطفيلي برجلها وطارت به. فقام ذلك الثقيل يجري خلف الشاش إلى قليوب، فنزلت على نخلة فأخذه وقد تمزق [ومن هنا نستنتج أن ابتكار الحكايات عن الثقلاء وسردها لم ينقطعا حتى في العصور المتأخرة نسبياً. . .]

وقال بعضهم: الثقيل في الدنيا أثقل من الحمل الثقيل، لأن الحمل مشترك بين الجسد والروح. والثقيل تحمله الروح فتتعب منه لإنفرادها.

وقال معاذ بن جبل: إن صحبة العاقل في المنازل [المغاور؟] الأسفار خير من صحبة الأحمق في الرياض والأزهار.

وقال ثقيل لثقيل آخر: أنت ثقيل وأنا ثقيل، فدعنا نصف بعضنا بعضاً. فقا له: أنت عندي أثقل من الكذب في أبيب ومن الصراع في كانون ومن الرقيب على العاشق ومن الغريم على المفلس وأثقل من عسر الولادة. فقال له الآخر: أنا اقتصر، أما أنت [فإنك] عندي أثقل من موت الفجأة ومن زوال النعمة [وذلك مما يبرهن أن تطوّر نوادر الثقلاء لم يزل مستمراً، لأن أغلب الموادّ الواردة في هذه «المفاخرة» ليست إلاّ حكماً وأقوالاً وردت عند الحصري والثعالبي وغيرهما، كما وقد رأينا أعلاه، ولكنها صيغت هنا صياغة جديدة على شكل المحاورة والمفاخرة؛ وقد كانت متفرقة منفردة بعضها عن بعض في النصوص القديمة].

ملحق ـ ٦

من «بغية الجليس والمسامر» لشهاب الدين الحفناوي البساري.
[مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٤٨،
ورقات ٥٧ ظ ـ ٥٩ و]:

في أخبار الثقلاء والبغضاء:

قال محمد بن عياض عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان إذا ثقل عليه الرجل قال: اللهمّ! اغفر لنا وارحمنا منه.

وقال بعضهم: الثقلاء ـ أوتاد الأرض.

قيل لحكيم: لم صار الثقيل أثقل من الحمل الثقيل، فقال لأن الحمل يشترك فيه الروح والبدن، والثقيل تحمله الروح وحدها فتتعب به.

وقال بعض الأطباء لبعض الحكماء: لا تكثرن من شرب الدواء فإنه كالصابون إن كان [ينظف] الثوب فإنه يخلقه، واجتنب رؤية [الثقلاء] فإنها حمى الروح.

وقال أحمد بن الحسين: علامة الثقيل أنه يصدع الرؤوس ويطيل الجلوس ويوحش النفوس.

دخل سلمة على الفراء يعوده فأطال الجلوس عنده، فقال الفراء: ألا أنشدك يا سلمة؟ قال: بلى! فأنشده:

حقّ العيادة يوم بعد يومين وأقعد قليلاً كمثل الحظ بالعين
لا تبرمنَّ مريضاً في مسائله يكفيك تسأله [...] بحرفين

قيل لحكيم: ما أعمّ الأشياء نفعاً؟ قال موت الثقلاء!

وقيل: العاقل بخشونة العيش مع اللطفاء ـ آنس منه بلين العيش مع الثقلاء...

لائحة المصادر والمراجع

[تكررت في ملاحظاتنا أعلاه، كل التفاصيل المتعلقة بالمخطوطات (أي أغلب الملاحظات)، ولم نلجأ إلى اختصار تلك التفاصيل. وذلك لعدة أسباب، منها كثرة العناوين المتشابهة وكثرة المؤلفين المجهولين واستعمالنا لعدة مخطوطات من نفس المصدر]

١. المصادر القديمة

(١) الآبي، «نثر الدرّ»، مخطوطة أكسفورد، ٢٢٥ ـ Pococke؛ مخطوطة دار الكتب ٧/٣٢٦، أدب. مخطوطة رئيس الكتّاب، ٩٤٠؛ مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٢٧١٤؛ مخطوطة كوبريلي، ١٤٠٣، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٥٧٦٩.

(٢) الأبشيهي، «المستطرف»، طبعة مصورة، القاهرة،د.ت.

(٣) ابن أبي أصيبعة، «طبقات الأطباء»، القاهرة، ١٢٩٩ هـ.

(٤) ابن أبي حديد، «شرح نهج البلاغة»، القاهرة، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٣.

(٥) ابن أبي عون، «كتاب الأجوبة المسكتة»، مخطوطة بايزيد، عم، ٤٥٦٠.

(*) ابن الحاج القرطبي، انظر: القرطبي.

(٦) ابن حمدون، «التذكرة»، أو «التذكرة الحمدونية»، مخطوطة راغب باشا، ١٠٨٢ ـ ١٠٨٥؛ مخطوطة دار الكتب، ١٥١٤ ـ أدب؛ مخطوطة ليدن، القسم الشرقي ١٧٨؛ مخطوطتان للمتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٣١٨٠.

(٧) ابن الجوزي «أخبار الحمقى والمغفلين»، بيروت، ١٩٦٧.

(٨) ابن الجوزي، «أخبار الظراف والمتماجنين»، النجف، ١٩٦٧.

(٩) ابن الجوزي، «زاد المسير»، دمشق وبيروت، ١٩٦٥.

(١٠) ابن الجوزي، «كتاب الأذكياء»، القاهرة، ١٩٧٠.

(١١) ابن الجوزي، «الوفاء بأحوال المصطفى»، القاهرة، ١٩٦٦.

(١٢) ابن خلكان، «وفيات الأعيان»، بيروت ١٩٦٨.

(١٣) ابن رشيق، «العمدة»، القاهرة، ١٩٣٤.

(١٤) ابن الزبير، القاضي، «الذخائر والتحف»، الكويت، ١٩٥٩.

(١٥) ابن الشجري، «ترويح الأرواح»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٢٧.

(*) ابن عاصم، انظر: القيسي الغرناطي.

(١٦) ابن عبد البرّ النمري، «بهجة المجالس»، القاهرة (وعلى الغلاف كذلك بيروت)، ١٩٦٢.

(١٧) ابن عبد ربّه، «العقد الفريد»، القاهرة، ١٩٤٠ ـ ١٩٥٣.

(١٨) ابن العربي، «محاضرات [محاضرة] الأبرار»، القاهرة، ١٩٢٠.

(١٩) ابن فليتة (أو ابن فلبتة، أو ابن قليتة الخ)، «رشد اللبيب»، مخطوطة جامعة استانبول، عربجة، ٢٤٠٠.

(٢٠) ابن قتيبة، «عيون الأخبار»، القاهرة، ١٩٦٣.

(٢٠-أ)ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، القاهرة، ١٩٨٢.

(٢١) ابن كثير، «تفسير ابن كثير»، بيروت، ١٩٦٦.

(٢٢) ابن كثير، «شمائل الرسول»، القاهرة، ١٩٦٧.

(٢٣) ابن المرزبان، «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب»، القاهرة، ١٣٤١ هـ، (وكذلك طبعة وترجمة R. Smith، وارمينستر، ١٩٧٨).

(٢٤) ابن المرزبان، «كتاب الثقلاء»، مخطوطة الظاهرية، ١٨ من قسم المجاميع، وانظر كذلك مختارات منها عند المغربي المذكور في قسم الأبحاث.

(*) ابن المطهر الحنفي، انظر الحنفي.

(٢٥) ابن المعتزّ، «طبقات الشعراء المحدثين»، القاهرة، ١٩٥٦.

(٢٦) ابن المعتزّ، «فصول التماثيل في تباشير السرور»، القاهرة، ١٩٣٥.

(٢٧) ابن المقفع، «الأدب الكبير»؛ «الأدب الصغير» (المنسوب له)، ضمن «آثار ابن المقفع»، بيروت، ١٩٦٦.

(٢٨) ابن مباركشاه، «السفينة»، مخطوطة فيض الله، ١٦١٩.

(٢٩) ابن منظور، «لسان العرب»، بيروت، ٦ ـ ١٩٥٥.

(٣٠) ابن منقذ (ابن مرشد)، أسامة، «لباب الآداب»، القاهرة، ١٩٣٥.

(٣١) ابن النديم، «الفهرست»، القاهرة، ١٣٤٨ هـ.

(*) أبو حيان التوحيدي، انظر التوحيدي.

(٣٢) أبو نواس، «ديوان»، بيروت، ١٩٥٢.

(٣٣) الأتليدي، «إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس»، القاهرة، ١٩٢٦.

(*) اردشير بن بابك، انظر: عباس، إحسان، في قسم الأبحاث.

(٣٤) الأرموي، الخازندار، «كتاب [آداب] السياسة»، مخطوطة كوبريلي (حيث ينسب الكتاب إلى ابن الأثير)، رقم ١٢٠٠.

(*) الأزدي، أبو المطهر، «حكاية أبي القاسم البغدادي»، هيدلبرغ، ١٩٠٢، وانظر: A. Mez في قسم الأبحاث في اللغات الأجنبية.

(٣٥) الأزدي، علي بن ظافر، «بدائع البرائه»، القاهرة، ١٢٧٨ هـ.

(٣٦) الأسنوي، «كتاب النصيحة الجامعة»، ضمن ـ M. Perlmann, *Goldziher Vol.*, 1948 - 58, pp. 172 - 208.

(٣٧) الأصفهاني، (الأصبهاني)، أبو الفرج، «كتاب الأغاني»، القاهرة، ١٢٨٥ هـ.

(٣٨) الأصفهاني، (الأصبهاني)، الراغب، «مجمع البلاغة»، مخطوطة طوبقبو (أحمد)، ٢٣٩٠.

(٣٩) الأصفهاني، (الأصبهاني) الراغب، «محاضرات الأدباء»، بيروت، ١٩٦١.

(*) الأصمعي، انظر الربعي.

(*) الأيديني، انظر: الكوزلحصاري.

(*) «ألف ليلة وليلة»، انظر: مؤلف مجهول.

(*) الأنباري، انظر المقرئ.

(*) الأنصاري، شمس الدين انظر: مؤلف مجهول، «نزهة المختار من نوادر الأخبار».

(*) البساري، انظر: الحفناوي.

(٤٠) البستي، أبو حاتم، «روضة العقلاء»، طبعة القاهرة ١٩٤٩، وطبعة القاهرة، ١٩٥٥ (الإشارة إلى الطبعتين في أغلب الملاحظات).

(٤١) بشار بن برد، «ديوان»، القاهرة، ١٩٥٧.

(٤٢) البغدادي، الخطيب، «كتاب البخلاء» بغداد، ١٩٦٤.
(٤٣) البغدادي، «كتاب التطفيل والطفيليين»، النجف، ١٩٦٦.
(٤٤) الترمذي، «الشمائل»، مع شرح علي القارئ، القاهرة، ١٣١٧ هـ.
(٤٥) التنوخي، القاضي، «الفرج بعد الشدّة»، القاهرة، ١٩٥٥.
(٤٦) التيفاشي، «نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب»، مخطوطة طوبقبو، (أحمد) ١٣١٧ (انظر كذلك في قسم اللغات الأجنبية: Khawam).
(٤٧) التوحيدي، أبو حيان، «البصائر والذخائر»، دمشق، ١٩٦٤.
(٤٨) الثعالبي، أبو منصور، «التحسين والتقبيح»، مخطوطة راغب باشا، ١٤٧٣ (الرسالة الثانية).
(٤٩) الثعالبي، «ثمار القلوب»، القاهرة، ١٩٦٥.
(٥٠) الثعالبي، «خاصّ الخاصّ»، بيروت، ١٩٦٦.
(٥١) الثعالبي، «سحر البلاغة»، دمشق، ١٣٥٠.
(٥٢) الثعالبي، «الكناية والتعريض»، طبعة مصورة، بغداد وبيروت، ١٩٧٢.
(٥٣) الثعالبي، «اللطائف والظرائف»، جمع المقدسي، القاهرة، ١٣٢٥.
(٥٤) الثعالبي، «لطائف الظرفاء»، ليدن، ١٩٧٨.
(٥٥) الثعالبي، «لطائف اللطف»، بيروت، ١٩٨٠.
(٥٦) الثعالبي، «لطائف المعارف»، ليدن، ١٩٦٧.
(٥٧) الجاحظ، «البخلاء»، القاهرة، ١٩٦٣.
(٥٨) الجاحظ، «البرصان والعرجان والعميان والحولان»، القاهرة، ١٩٧٢.

(٥٩) الجاحظ، «البيان والتبيين»، القاهرة، ١٩٦٨.

(٦٠) الجاحظ، «التاج في أخلاق الملوك»، (منسوب للجاحظ)، القاهرة، ١٩١٤، وانظر كذلك: ترجمة Pellat في قسم الأبحاث باللغات الأجنبية.

(٦١) الجاحظ، «التربيع والتدوير»، دمشق، ١٩٥٥.

(٦٢) الجاحظ، «الحيوان»، القاهرة، ١٩٦٩.

(٦٣) الحجازي، الخزرجي، شهاب الدين، الأنصاري «روض الآداب»، مخطوطتا دار الكتب، ٤٣٧؛ المتحف البريطاني، ٨٩و Add- ١٩٠٤ (انظر التصويبات).

(٦٤) الحسيني، المكي الموسوي، نور الدين، «نزهة الجليس»، النجف، ١٩٦٧.

(٦٥) الحصري، «جمع الجواهر في الملح والنوادر»، القاهرة، ١٩٦٩.

(٦٦) الحصري، «زهر الآداب»، القاهرة، ١٩٦٩.

(٦٧) الحفناوي، البساري، «بغية الجليس»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٤٨.

(٦٨) الحلبي، «السيرة الحلبية»، القاهرة، ١٢٨٠.

(٦٩) الحنفي، ابن المطهّر، «أنس الوحيد»، مخطوطة فاتح، ٣٦٧٦.

(٧٠) الخزرجي، الشافعي، «القمر الطالع»، مخطوطة كمبريدج، ٨/ ٢٠٩ ـ

(*) الخزرجي، الحجازي، شهاب الدين، انظر: الحجازي.

(٧١) الخرائطي، «مكارم الأخلاق»، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ١٢٢ (النصّ الكامل) وطبعة القاهرة (ناقصة! وانظر ملاحظة ١٦٨)، ٢٣٥٠ هـ.

(*) الخطيب البغدادي، انظر البغدادي.

(٧٢) دعبل، «ديوان»، طبعة بيروت ١٩٦٢، وطبعة دمشق، ١٩٦٤ (الإشارة إلى كلتا الطبعتين).

(٧٣) الرازي، فخر الدين، «التفسير الكبير [مفاتيح الغيب]»، القاهرة، ١٩٣٨.

(*) الراغب الأصفهاني (الأصبهاني)، انظر: الأصفهاني.

(٧٤) الربعي، «المنتقى من أخبار الأصمعي»، دمشق، ١٩٣٦.

(٧٥) الرقيق القيرواني، «قطب السرور»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٣٠٢ وطبعة دمشق (جزئية، لا تشتمل على بعض الأقسام الموجودة في مخطوطة باريس)، ١٩٦٩. وكذلك مختصر: «المختار من قطب السرور»، تونس، ١٩٧٦.

(٧٦) الزمخشري، «ربيع الأبرار»، مخطوطة أيا صوفيا، ٣٩٨٤/O؛ مخطوطة ترخان والده، ٢٧٣؛ مخطوطة دار الكتب، ١٥٥، أدب؛

(٧٧) الزمخشري، «الكشاف»، القاهرة، ١٩٢٥.

(٧٨) الزمخشري، «المستقصى في الأمثال»، حيدر آباد، ١٩٦٢.

(٧٩) الستيوي (وهناك من يقول: الشتيوي)، «زبد الأدباء»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٧٩ ـ ٣٥٨٠.

(٨٠) السمرقندي، «بستان العارفين» (على هامش «تنبيه الغافلين»)، القاهرة، طبعة مصورة، د.ت.

(*) «سيرة بني هلال»، انظر: مؤلف مجهول.

(٨١) السيوطي، جلال الدين، «اتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء»، مخطوطة برينستون، H ـ ١١٥٢ (٢٠٠٧)؛ مخطوطة رئيس الكتّاب، ٤٦/١١٤٩ (الرقم القديم: ١١٥٠)؛ مخطوطة السليمانية، ١٢٧/٧٠٨؛ مخطوطة ليدن، القسم الشرقي ٤٧٤/١٤؛ مخطوطة نفس المدينة والقسم، ٢٧٧٢.

(٨٢) السيوطي، «الإتقان بعلوم القرآن» القاهرة، ١٩٣٥.
(٨٣) السيوطي، «تحفة المجالس، القاهرة، ١٩٠٨.
(٨٤) السيوطي، «نواضر الأيك. . .» مخطوطة أسعد أفندي، ٢٤٧٧.
(*) السيوطي، انظر كذلك، Sartain في قسم الأبحاث في اللغات الأجنبية.
(٨٥) السيوطي، محمد بن أبي بكر، «رياض الألباب»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤١٩.
(*) الشافعي، انظر: المعري الشافعي.
(*) الشافعي، انظر: الخزرجي الشافعي.
(٨٦) الشيزري، «جمهرة الإسلام»، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٢٨٧.
(٨٧) الصريحي، عثمان، «نزهة الأفراح»، مخطوطة أكسفورد، Marsh ١٠.
(٨٨) الصابئ، «تحفة الأمراء في تأريخ الوزراء»، ليدن وبيروت، ١٩٠٤.
(٨٩) الطبرسي، «مكارم الأخلاق»، طهران، ١٣٧٦ هـ.
(٩٠) الطبري، «تأريخ الرسل والملوك»، ليدن ١٨٧٩ ـ ١٩٠١.
(٩١) الطبري، «جامع البيان في تفسير القرآن»، بيروت، ١٩٦١.
(٩٢) العسكري، أبو هلال، «جمهرة الأمثال»، القاهرة، ١٩٦٤.
(٩٣) العسكري، «ديوان المعاني»، القاهرة، ١٣٥٢ هـ.
(*) علي بن أبي طالب، انظر القضاعي.
(٩٤) الغزولي، «مطالع البدور في منازل السرور»، القاهرة، ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠ هـ.
(٩٥) الغزي، «المراح في المزاح»، القاهرة، ١٣٤٩.

(٩٦) القادري، علاء الدين الدمشقي، «محاسن الآثار في ذم الشح والبخل»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٢٤٩٤، ورقات ١٦٢ ـ ١٩٣.

(٩٧) القالي، أبو علي، «الأمالي»، و «ذيل الأمالي»، القاهرة ١٩٢٦.

(٩٨) القرشي، «بهجة القلوب»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٤٥.

(*) القرطاجني، انظر: بدوي، في قسم الأبحاث.

(٩٩) القرطبي، ابن الحاج، «نزهة الألباب»، مخطوطة دار الكتب، ١٣١٧، أدب؛ مخطوطة باريس المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٢٦.

(١٠٠) القرطبي، محمد، أبو عبد الله، «الجامع لأحكام القرآن»، القاهرة، ١٩٦٧.

(١٠١) القضاعي، «دستور معالم الحكم» (حِكَم علي بن أبي طالب)، القاهرة، ١٣٣٦ هـ.

(*) القيرواني، انظر الرقيق القيرواني.

(١٠٢) القيسي الغرناطي، ابن عاصم، «حدائق الأزهار [الأزاهر]؛ مخطوطة دار الكتب ١٨٣٣، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي ٣١٧٨.

(*) الكتبي، «مختصر غرر الخصائص»، انظر الوطواط.

(١٠٣) الكرمي، «غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٢٠٢٦.

(١٠٤) كشاجم، «أدب النديم»، الإسكندرية، ١٣٢٩ هـ.

(١٠٥) الكوزلحصاري، الايديني، محمد بن حمزة، «رسالة في الدمامة» (في الأصل: بدون عنوان)، مخطوطة عاطف أفندي، ٢٨٤٠، من ورقة ١٠٩.

(١٠٦) المارديني، محمد بن يوسف، «محاسن الأدب واجتناب الريب»، مخطوطة دار الكتب، ٣٧٤، أدب.

(١٠٧) الماوردي، «أدب الدنيا والدين»، القاهرة، ١٩٢٢.

(١٠٨) محمد بن محمد (ولا يعرف اسمه الكامل)، «المحاضرات والمحاورات» مخطوطة Rylands، مانشستر، (٨١٨) ٦٧٤.

(١٠٩) المسعودي، «مروج الذهب»، القاهرة، ٥ ـ ١٩٦٤، وكذلك طبعة شارل بلا، ج ٤، بيروت، ١٩٧٣.

(١١٠) المعري، الشافعي، «بهجة السرور» مخطوطة طوبقبو (أحمد) ٢٣١٩.

(*) المقدسي، انظر الثعالبي، «اللطائف والظرائف».

(١١١) المقرئ، محمد بن أحمد الأنباري، «بلوغ الآراب (في لطائف العتاب)»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٩٤.

(١١٢) المقرئ، محمد بن ابراهيم، «كتاب الدرة المضيئة»، مخطوطة جامعة استانبول، عربجة، ٤٥١٥.

(١١٣) المقريزي، «الخطط» (المواعظ والإعتبار. . .»)، القاهرة، ١٢٧٠ هـ.

(*) المكي الحسيني، الموسوي، انظر الحسيني المكي.

(١١٤) المناوي، «الدرّ المنضود في ذمّ البخل ومدح الجود»، مخطوطة دار الكتب، ٣٥٦ ـ أدب.

[مؤلفون مجهولون]

(١١٥) مؤلف مجهول، «آداب الملوك على الشارب»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٥٣١٤.

(١١٦) مؤلف مجهول، «ألف ليلة وليلة»، كالكوتا، ١٨٣٩.

(١١٧) مؤلف مجهول، «أنس الوحيد»، مخطوطة فاتح، ٣٦٧٦.

(١١٨) مؤلف مجهول، بدون عنوان، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ١٦٥٣.

(١١٩) مؤلف مجهول، بدون عنوان، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٦٥٠.

(١٢٠) مؤلف مجهول، بدون عنوان، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١١٤١٢.

(١٢١) مؤلف مجهول، بدون عنوان، مخطوطة المتحف البريطاني، Add ـ ٩٥٨٧.

(١٢٢) مؤلف مجهول، «بهجة الجليس»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، قائمة القسم العربي،٣٤٤٨ [وانظر التصويبات].

(١٢٣) مؤلف مجهول، حكايات بدون عنوان، مخطوطة بيرينستون، مجموعة يهودا (٤٤١٣) ٢٥١٠.

(١٢٤) مؤلف مجهول، «حكايات عن جحا، هزلية»، مخطوطة مانشستر،(٢٠٤) ٦٥٧، ورقات ٨٦ و ـ ١٠٠ ظ.

(١٢٥) مؤلف مجهول، حكاية شعبية، ضمن مخطوطة بدون عنوان، باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٧١، ورقات، ٣٣ و ـ ٤٢ و.

(١٢٦) مؤلف مجهول، «حلية الأدب»، مخطوطة كمبريدج، ٤٧ ـ Qq.

(١٢٧) مؤلف مجهول، «حلية الكرماء»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي ٣٤٧٦ [والمؤلف معروف اليوم، انظر: التصويبات].

(١٢٨) مؤلف مجهول، «درة الزين»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٤٠.

(١٢٩) مؤلف مجهول، «رقائق الحلل في دقائق الحيل»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي ٣٥٤٨ وانظر كذلك: Khawam في قسم الأبحاث والترجمات في اللغات الأجنبية.

(١٣٠) مؤلف مجهول، «الروض الناضر»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٥٨١.

(١٣١) مؤلف مجهول، «رياض الأفكار»، مخطوطة دار الكتب، ٤٦٩٩ ـ أدب.

(١٣٢) مؤلف مجهول، «سيرة بني هلال»، دمشق، ١٩٢٧.

(*) مؤلف مجهول، «الفاضل»، انظر: الوشاء.

(١٣٣) مؤلف مجهول، «في بيان المستطرف والمستظرف»، مخطوطة أكسفورد، وينفلد، ٥٠.

(١٣٤) مؤلف مجهول، «القصيدة البهلولية»، مخطوطة الأكاديميا الهولندية (اليوم في مكتبة ليدن) ١٣٧ ـ Acad.

(١٣٥) مؤلف مجهول، «كتاب أنيس»، مخطوطة فاتح، ٣٦٨٣.

(١٣٦) مؤلف مجهول، «المختار من نوادر الأخبار»، (مختار من كتاب الأنباري، شمس الدين)، مخطوطة دار الكتب ٣٦٩ ـ أدب، مخطوطة كمبريدج، ١٩٨ ـ Qq؛ مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي ٣٤٩١ (وربما تختلف هذه «المختارات» بعضها عن بعض).

(١٣٧) مؤلف مجهول، «مختصر نثر الدر» (انظر كذلك: الأبي)، مخطوطة يكسفورد، ٣٥٥.

(١٣٨) مؤلف مجهول، «مضحك العبوس»، مخطوطة دار الكتب، ٥١٠٢ ـ أدب.

(١٣٩) مؤلف مجهول، «مكارم الأخلاق»، مخطوطة ليدن، القسم الشرقي، ٢٠٠.

(١٤٠) مؤلف مجهول، «منتخب المختار»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٣٢٥ (يشبه رقم ١٣٦ أعلاه؟).

(١٤١) مؤلف مجهول، «نزهة الأخيار»، مخطوطة فاتح، ٤١٣٥ (ولكن انظر أعلاه: الخلوتي، مخطوطة يشبه عنوانها)، مخطوطة كمبريدج، القسم الشرقي، ١٤٥٤ (= «نزهة الأخيار ومجمع النوادر»، نفس الكتاب؟).

(١٤٢) مؤلف مجهول، «نزهة الأدباء»، مخطوطة كمبريدج، القسم الشرقي ٨/١٢٥٦؛ مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ١٣٥٧.

(١٤٣) مؤلف مجهول، «نزهة الأصحاب في معاشرة الأحباب»، مخطوطة التيمورية، أدب ـ ١٥٢.

(١٤٤) مؤلف مجهول، «نزهة المسامر»، مخطوطة كمبريدج، (١) ١٨٢ ـ Qq.

* * *

(١٤٥) الميلوي، يوسف بن محمد [أو: بن الوكيل]، «رحلة الغريب»، مخطوطة رئيس الكتّاب، ٧٩٨ ومخطوطة طوبقبو (أحمد) ٢٤٠١.

(١٤٦) نفس المؤلف [؟] (انظر أعلاه، ملاحظة ١٩٢)، «إرشاد من نحا إلى نوادر جحا»، مخطوطة يل، Landberg، ٢٥٨.

(١٤٧) النواجي، «مراتع الغزلان»، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٤٠٢.

(١٤٨) النويري، «نهاية الأدب»، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، د.ت.

(١٤٩) النيسابوري، «عقلاء المجانين»، النجف، ١٩٦٨.

(١٥٠) الهمذاني. «المقامات»، بيروت، ١٩٥٨.

(١٥١) الهندي، محمد بن عبد الله، «مبهج النفوس»، مخطوطة كمبريدج، ١٩١ ـ Qq.
(١٥٢) الوشاء، «الفاضل»، مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٦٤٩٩ وكذلك اقتبسنا عن مخطوطة، «الفاضل»، لدار الكتب، ٢٣ ش، أدب، لمؤلف مجهول (الوشاء؟) وقيل لنا أن «الفاضل» طبع أخيراً.
(١٥٣) الوطواط، «غرر الخصائص»، القاهرة، ١٢٨٤ هـ؛ وكذلك ما اختصر الكتبي: «غرر الخصائص الواضحة». مخطوطة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ٣٦٣٠.
(١٥٤) ياقوت، «معجم الأدباء» («إرشاد الأريب...»)، القاهرة، ٨ ـ ١٩٣٦.

٢. أبحاث وكتب أدبية ودينية من القرن العشرين:

(١٥٥) بدوي، عبد الرحمن، حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة»، القاهرة، ١٩٦١ (طبع كذلك في كتاب عيد ميلاد طه حسين).
(١٥٦) بلا، شارل، «أصالة الجاحظ»، الدار البيضاء، ٢ ـ ١٩٦١.
(١٥٧) بلا، «الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء»، دمشق، ١٩٦١.
(١٥٨) جبر، جميل، «الجاحظ في حياته وأدبه وفكره»، بيروت، ١٩٥٩.
(١٥٩) الجومرد، عبد الجبار، الأصمعي، حياته وآثاره»، بيروت، ١٩٥٥.
(١٦٠) الحوفي، محمد أحمد، «الفكاهة في الأدب»، القاهرة، ١٩٥٦.
(١٦١) زكي، أحمد كمال، «الأصمعي»، القاهرة، د.ت.

(١٦٢) سدان، يوسف، «البيئة الشعبية، محور الأدب القصصي»، في «الجديد» (حيفا)، ج ٢٢، ١٩٧٥، ص ٣٧ ـ ٤٦.

(١٦٣) شعبان، بهيج، «أثر المعدة في الأدب العربي»، بيروت، ١٩٦٦.

(١٦٤) العامري، عماد الدين، «بهجة المحافل»، المدينة، ١٣٣٠ ـ ١٣٣١ هـ.

(١٦٥) العطري، عبد الغني، «أدبنا الضاحك»، بيروت، ١٩٧٠.

(١٦٦) العقاد، عباس محمود، «جحا الضاحك المبكي»، طبعة جديدة، القاهرة، د.ت.

(١٦٧) العناني، نشأت، «فنّ السخرية في أدب الجاحظ»، القاهرة، ١٩٨٠.

(١٦٨) عويس، محمد، «المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ»، القاهرة، ١٩٧٧.

(١٦٩) فراج، عبد الستار، «أخبار جحا»، القاهرة، ١٩٥٤.

(١٧٠) فريحة، أنيس، «الفكاهة عند العرب»، بيروت، ١٩٦٢.

(١٧١) مبارك، زكي. «النثر الفني في القرن الرابع»، القاهرة، ١٩٣٢.

(١٧٢) المغربي، عبد القادر، «الثقالة والثقلاء»، ضمن «مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق»، ج ١٢، ١٩٣٢، ص ٤٤٩ ـ ٤٦٩.

(١٧٣) المويحلي، محمد، «حديث عيسى بن هشام»، القاهرة، ١٣٣٠ هـ.

(١٧٤) نالينو، ك.أ. «تأريخ الآداب العربية»، القاهرة، ١٩٧٠.

(١٧٥) النبواني، يوسف بن اسماعيل، «وسائل الوصول»، بيروت، ١٩٧٠.

(١٧٦) النجار، محمد رجب، «جحا العربي»، الكويت، ١٩٧٨.

٣. الأبحاث والترجمات في اللغات الأجنبية:

(177) A.F.L. Beetson, «The Genesis of the Maqâmât Genre», *J.A.L*, 1971, pp, 1 - 12.

(178) M. Bergé, *Pour un humnisme vécu: Abû Ḥayyân al-Tawḥîdî*, Damascus, 1979.

(179) R. Blachère, «Regards sur l'acculturation des arabo-musulmans vers 40/661», *Arabica* III, 1956, pp. 247-265.

(180) Idem, P. Mansou, *Al-Hamadânî - choix de maqâmât*, Paris, 1957.

(181) V. Branca, *Boccaccio Medievale*, Florence, 1975.

(182) C. Brockelmann, *Geschichte der arabischen Literature*, Leiden& 1937 - 1949.

(183) M. Canard. «Le cérémonial fâṭimide et le cérémonial byzantin», *Byzantion*, XXI, 1951, pp. 355 - 420.

(184) A. Chejne, «The Boon-Companion in Early «'bbâsid Times», *J.A.O.S.* LXXXV, 1965, pp. 327-335.

(185) A. Christensen, *L'Empire des Sassanides*, Copenhaguen, 1907.

(186) Idem, *L'Iran sous les Sassanides*, Copenhaguen, 1944.

(187) J. Déjeux, *Joha - héros de la tradition arabo-berbère*, Quebec, 1978.

(188) I. Geries, *Un genre littéraire arabe (al-Maḥâsin w'al-masâwi')*, Paris, 1977.

(189) M. F. Ghazi, «Un groupe social - les 'raffinés'*(ẓûrafâ')*», *Studia Islamica*, XI, 1959, pp. 39 - 71.

(190) H.A.R. Gibb, «The Social Significance of the Shu'ûbiyya», in his *Studies in the Civilization of Islam*, London, 1962, pp. 62 - 73.

(191) I. Goldziher, *Muhammedanische Studien*, Halle, 1889 - 1890.

(192) O. Graber, «Notes sur les cérémonies umayyades», *Studies in Memory of Gaston Wiet*, Jerusalem, 1977, pp. 51 - 60.

(193) L. Gulliver (al-Hajj), *Fifty and one Jests of Joha*, Beirut, n.d.
(194) W. Heinrichs, *Arabische Dichtung un griechische Poetik* , Beirut, 1969.
(195) R. Khawam (trad.), *Al-Tîfâchî, Délices des coeurs*, Paris, 1971.
(196) Idem (trad.), *Le livre des ruses* (d'un auteur anonyme), Paris, 1976.
(197) A. von Kremer, *Über das Einnahmbudget des Abbasiden-Reiches*, Wien, 1884 (*Denkschrift der Philos. -Hist. Classe der Kaiserlichen Akad. XXXVI*).
* P. Mansou, see R. Blachère.
(198) A. Mez, *Abulkasim, ein bagdader Sittenbild*, Heidelberg, 1902.
(199) A. Mingana, *Cat. Ar. Mss. in the J. Rylands Library*, Manchester, 1934.
* C.A. Nallino, see in the Arabic list.
(200) M. Peled, "Creative Translation", *J.A.L.*, X, 1979, pp. 128-150.
(201) Ch. Pellat (trad.), *Le livre de la couronne attribué à Ǧâḥiẓ*, Paris, 1954.
(202) Idem, "Essai d'inventaire de l'oeuvre ǧâḥiẓienne", *Arabica*, III, 1956, pp. 147-178.
(203) Idem, "Seriousness and Humour in Early Islam", *Islamic Studies*, II/3, 1963, pp. 352-362.
(204) Idem, "Djidd wa-hazl", *E.I.* (new ed.), II, Leiden, 1965, pp. 436-437.
(205) Idem, "Djuḥa", *ibid.* pp. 590-592.
* Idem - see also in the Arabic list, the Arabic translation of his *Milieux basriens*.
* M. Perlmann, see al-Usnawi, in the Arabic list.
(206) F. Rosenthal, *Humor in Early Islam*, Leiden, 1956.
(207) A. Sachs, *The Prankster's Decline*, Tel Aviv, 1979.
(208) J. Sadan, "Meubles et acculturation", *Annale (Economies, Sociétés, Civilisations)*,XXV, 1970, pp. 1354-1375.

(209) Idem, "A propos de martaba", *R.E.I.*, XL, 1973, pp. 51-69.
(210) Idem, "The Nomad versus Sedentary Framework", *Fabula*, XV, 1974, pp. 59-86.
(211) Idem, "Vin - fait de civilisation", *Studies in Memory of Gaston Wiet*, Jerusalem, 1977, pp. 129-160.
(212) Idem, "Genizah and Genizah-Like Practices", *Bibliotheca Orientalis* (in press).
(213) Idem, *Nouvelle source sur l'époque bûyide* (*Hadâra* 1), Tel Aviv University, 1980.
(214) Idem, "Kings and Craftsmen", *Studia Islamica*, LVII, 1982, pp. 7-49.
(215) E.M. Sartain, *Jalâl-Dîn al-Suyûṭî*, Cambridge, 1975.
(216) D. Sourdel "Questions de cérémonial 'abbâside", *R.E.I.*, XXVIII, 1960, pp. 121-148.
* R. Smith, see Ibn al-Marzubân in the Arabic list.
(217) S. Thompson, *Motif-Index of Folk Literature*, Copenhaguen, 1955-1958.

تصويبات:

ـ ص ٤٣، في السطر ٢٣، ماورد عن مخطوطة المتحف البريطاني ٥٧٦٩ ليس إلا مضمون «نثر الدر» للآبي.

ـ بالنسبة لكتاب (رقم ١٢٧ في قائمة المصادر) «حلية الكرماء» لمؤلف مجهول، مخطوطة باريس، المكتبة الأهلية، القسم العربي، ٣٢٧٦ (وهو الرقم الصحيح بالفعل): كان المؤلف مجهولاً عندما ألّف De Salne فهرست المكتبة، ولكن في قائمة Vajda ورد اسم المؤلف: محمد بن حسن الخالدي.

ـ أشرنا إلى مخطوطتين من كتاب شهاب الدين الحجازي الخزرجي («روض الآداب») في المتحف البريطاني: Add-٩٥٦٤ و Add-٩٠٤٩٨، وربما خلطنا بعضهما ببعض في إحدى الملاحظات.

ـ أشرنا دائماً إلى مخطوطة المكتبة الأهلية الباريسية ٣٤٤٨ بأنها «بغية الجليس» للحفناوي البساري ولكن في إحدى الحالات ورد أنها لمؤلف مجهول («بهجة الجليس»، وانظر رقم ١٢٢ في قائمة المصادر، والصحيح كما ورد في رقم ٦٧).

المحتويات

Joseph Sadan

La littérature arabe humoristique et les anecdotes sur les lourdauds